
رواية
مؤنس الملك
ماحي بينبين
مكتبة نوميديا
نوفل

رواية

مؤنِس الملك

ماجي بينبين

نقله من الفرنسيّة أدونيس سالم



نوفل

صدرت عام 2019 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Shutterstock** ©
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **منال عبد الأحد**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-944-7
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-945-4

Original title:
Le fou du roi
© Éditions Stock, 2017

إلى أبي

مسكين أنت أيّها الشحرور!
كم تخفي سعادة المهرّج آلامًا دائمة لا شفاء منها!
كم هي حزينة مهنة الإضحاك!

فكتور هوغو

1

كان كلّ شيء يبدو طبيعيًّا، لكنّ الحقيقة غير ذلك تمامًا. تحت ستار ليل لا قمر فيه، ومزيّن بنجوم بعيدة وشاحبة، ظهر خيالان في فناء القصر الفسيح. كان سيدي يتقدّم ببطء في الممرّات التي توزّعت فيها الفوانيس، وأحاطت بجوانبها أشجار البرتقال واللوز والنخل. وكنت كالعادة أتبعه عن قرب، مقوّس الظهر قليلًا، ومظهري يدلّ على شيء من الخضوع، كما تقتضي الأصول ممَّن يواكب ملكًا. كان شذا الياسمين ومسك الليل يعطّر الهواء الرطب في تلك الليلة من شهر تمّوز/يوليو. كان سيدي يمسك بيديه الاثنتين بطنه الذي يؤلمه، ويطلق بين الحين والآخر أنينًا مكتومًا. فالوحش الخفيّ ينهش أحشاءه بلا هوادة، حتّى بات يعجز عن السير مستقيمًا. آلمتني رؤيته يعاني كلّ هذه الأوجاع، لكنّي حرصت على ألّا أُظهر حقيقة مشاعري. بل بذلت جهدي كي أكون طريفًا، لأنّ مهنتي هي أن أُضحِك مولاي. لكنّ سيدي كان كئيبًا، شارد الذهن، وقد ملأت وجهه تجاعيد عميقة كأنّ الألم حفرها بغتة.

كان كلّ شيء يبدو طبيعيًّا، لكن لا شيء يكون في الحقيقة طبيعيًّا حين يركع الأسد، وحين تصبح مخالبه مجرّد عظام كليلة لا نفع منها، فلا تثير ارتعادة أحد. حين تخبو نار نظرته، فتثير الشفقة

بعدما كانت تزرع الرعب في النفوس، إذ تتحوّل إلى نظرة فارغة موجّهة نحو داخل مظلم لجسد متداعٍ ومنهك. لم يبقَ من زئير الماضي البعيد سوى صدًى واهٍ لحياة استُنزِفت حتّى الإنهاك، وأُثقِلت بمختلف أنواع المشاعر التي بلغت حدّ الإفراط: مرارات الندم، والهزائم المكتومة، وأنصاف الانتصارات المدوّية، والأفراح العارمة، والآلام العميقة، والخيبات، والأسى... حياة صاخبة سارت فيها الملائكة والشياطين جنبًا إلى جنب، فوق دروب متعرّجة، مزروعة بالأشواك، وحافلة بالمواعيد المحتومة مع الموت الذي لا يرحم.

كان كلّ شيء يبدو طبيعيًّا، لكنّني أحسستُ بكتلة من الأحزان تقبض على صدري. كنت أصلّي لله صبحًا ومساء لكي يخلّص مولاي من مرضه، أو، إذا اقتضى الأمر ولم يكن هناك من مفرّ، لكي يُنزل ذلك المرض بي أنا. كنت مستعدًّا لأن أتحمّل ألمه الجسديّ، والتشنّجات التي تمزّق أمعاءه، والسكاكين التي تخترق خاصرتيه. ألم أكن طوال خمسة وثلاثين عامًا خادمه المتفاني، ومؤنسه المضحك صاحب المخيّلة التي لا تنضب، والفقيه الدينيّ المعتمد لديه، مع أنّه هو أمير المؤمنين؟ ألم أكن مستشاره الأدبيّ، ومرجعه بدون منازع في عالم الشعر الخياليّ، الشاهد على ذلك الزمن حين كان العرب يخوضون حروب الرباعيّات والقصائد، وحين كان النحاة يتجادلون شهورًا حول صحّة لفظة ما، أو تصريف فعل، أو تشكيل كلمة، ذلك الزمن حين كانت المعادلات الرياضيّة أو الفلكيّة بمنزلة ديانة... ذلك الزمن المبارك الذي يبدو الآن وكأنّه لم يكن سوى ضرب من الخيال؟

كان كلّ شيء يبدو طبيعيًّا، لكن لا شيء كان طبيعيًّا بالنسبة إلى خادمكم. أنا، محمّد بن محمّد، الآتي من حثالة مجتمع مراكش، والذي لم يكن مقدَّرًا له أن يقف يومًا بجانب عليّة القوم، أنا، الناجي من أسفل درك قد تبلغه البشريّة، كنت هناك، في تلك الأمسيّة من تمّوز/يوليو، أسير خلف مولاي المحتضر، مستعيدًا في ذهني الحكم الرهيب الذي نطق به الطبيب: «يومان أو ثلاثة على أبعد تقدير، ونصبح كلّنا أيتامًا!»

لفت انتباه سيدي ضوء غير اعتياديّ في قاعة الهدايا، وهي كناية عن مستودع ضخم تكدّست فيه آلاف الهدايا غير المفتوحة بعد، والتي كان صاحب الجلالة يتلقّاها عيدًا بعد عيد.

– تعال، دعنا نلقِ نظرة، قال لي.

– تأخّرنا يا سيدي. علينا العودة، الليل بارد قليلًا.

– لن أعود قبل أن أباغت هذا الأرعن الذي يسرقني وأنا لا أزال حيًّا، أجاب ممتعضًا وهو يتابع سيره.

– لا بدّ من أنّ الخدم ينظّفون القاعة، سيدي.

– في مثل هذه الساعة؟

صمتُّ. فالملك بدا مصمّمًا على معرفة ما يجري.

حين يسير المرء في القصر مساء، يجب ألّا يخدعه شعوره بأنّه وحيد. فعشرات العيون تكون مصوّبة نحوه، تتفحّصه، وترصد كلّ حركة يقوم بها. كنت على يقين من ذلك، فقد عشت عدّة عقود بين هذه الأسوار ذات الرسوم الفسيفسائيّة التي تثير الدوار، وسط هذه الحدائق المزيّنة بنوافير المياه التي تُردّد خريرها الرتيب بين الممرّات. من جهة، بدا لي من غير المعقول أن يجازف متهوّر بالسرقة في قلب قصر الملك. ولكنّ أحدًا لم يكن يجهل، من جهة

أخرى، أنّ الملك المحتضر لم يعد سوى ظلّ لنفسه، ممّا أعطى بعضهم الانطباع بأنّهم قادرون على ارتكاب أفظع الحماقات.

وصلنا بعد جهد إلى الجناح الشماليّ للقصر، وتسلّقنا بضع درجات ثمّ سرنا في رواقٍ طويل سقفه من العقد، مخصّص لعمّال القصر. كان باب مغارة علي بابا مفتوحًا قليلًا، فدفعه سيدي بهدوء ومدّ رأسه عبر الفتحة، ولبث بدون حركة لبعض الوقت. ثمّ دخل بهدوء، وسرت خلفه. رأينا أمامنا مشهدًا أقلّ ما يقال فيه إنّه صادم، وما كان ليخطر ببال أحد منذ أسابيع خلت: كان عبد عجوز قد رفع طرف جلابيته ليجعل منها كيسًا، وأخذ يملأه بما تيسّر له من علب ثمينة، ورزم ملفوفة بالقماش اللبّاد، وهدايا شتّى. لا بدّ من أنّ سمعه كان خفيفًا لأنّه لم يلحظ وجودنا البتّة. ولكن حين تنحنح سيدي، انتفض الرجل واستدار ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام الملك، وكاد يغمى عليه. وقف أمامنا مرتعشًا يشلّه الخوف وكأنّه يريد أن يقول شيئًا لكنّ صوته يختنق في صدره. كانت سحنته السوداء قد تحوّلت إلى لونٍ بنفسجيٍّ يبثّ لمعانه، الذي فاقمته نقاط العرق المنسالة على جبينه، انعكاسات رعبٍ. لمّا كنت أعرف سيدي، فقد توقّعت نهاية مروّعة لهذا العبد الجسور الذي ظلّ متجمّدًا كصنم وهو يشدّ غنيمته إلى صدره. قلت لنفسي إنّه وفي أفضل الأحوال سيعاقبه بمئة جلدة، يُنزلها به «عبيد النار» الذين يهابهم الجميع. تلك السياط السيّئة الصيت، المضفورة من أذيال الثيران والتي تُبَلّ بالماء البارد، كانت لها فرقعة تكفي وحدها لتشكّل عقابًا مخيفًا! أمّا أسوأ الأحوال، فلم أجرؤ على التفكير فيها. ومع ذلك، فإنّ الملك لم يكن ممّن يُمكن توقّع ردّات فعلهم، فقد كان قادرًا

على إنزال قصاص عنيف لأتفه الأسباب، كما على المسامحة على أفدح الأخطاء.

وذاك المساء، تبيّن لنا الدليل على هذا الطبع.

– هيّا، قال للسارق، أسرِع بالهروب! إذا باغتك الحرّاس، فالشنق سيكون مصيرك.

وقف العبد حائرًا، لا يدري أيصدّق مولاي أم لا. اقتربت منه، وأخذت من مسروقاته ما بدا لي أنّه علبة لساعة ثمينة، ووضعته في قبّعة جلابيّتي. ثمّ قلت له:

– أقلّه أن تدع الآخرين يشاركونك غنائمك، أيّها الحقير! اذهب قبل أن يغيّر سيدي رأيه! وتابعتُ بعدما رأيت ابتسامة ترتسم على وجه مولاي المتعب: اعتبر نفسك محظوظًا، فسيدي في مزاج حسن هذا المساء. برأيي المتواضع عليك أن تستغلّ الأمر لتطلب شيئًا آخر!

نظر إليّ العبد وهو لا يصدّق ما يسمعه، فيما كان الملك يبتسم.

– رخصة نقل، مثلًا. اتفاقية ما تضمن لك شيخوختك.

– أيّ اتفاقية هذه؟، سألني الملك منشرحًا.

اقتربت من العبد وهمست في أذنه:

– إذنُ نقل بالقطار!

– إذن نقل بالقطار يا مولاي!، قال المسكين متلعثمًا بدون تفكير.

انفجر الملك ضاحكًا، ما أيقظ ألمه، لكنّه لم يبالِ.

كانت ضحكته أشبه بسرب من الفراشات تنطلق محلّقة. شاركتُه الضحك، وقلت:

– لعلّ إذنَ النقل الجوّيّ أكثر فائدة لصديقنا! ثمّ قلت للعبد: هيّا ارحل! لقد استحققت كنزك!

شاهدناه يخرج مترنّحًا، وخلفه خطّ من البول سال منه.

لبث سيدي لفترة في هذه القاعة الرحبة الملأى بأطنان من الهدايا التي لم يكن لديه الوقت ولا الرغبة في فتحها. لم يسعده هذا الثراء الباطل أبدًا. وحيثما سيذهب بعد أيّام، لن يكون بحاجة إلى أشياء كثيرة. هو وأنا عرفنا ذلك. ولكنّ مسامحته العبد وتركه يذهب في سبيله جعلاه يشعر بسعادة عميقة.

– تعال، قال لي بصوت هادئ، هيّا بنا نعود.

2

منذ أسابيع وجميع مَن في القصر الملكيّ يتظاهرون بأنّ كلّ شيء طبيعيّ. شيئًا فشيئًا، أخذ جوّ ثقيل يحلّ محلّ الجلبة الاعتياديّة. فقد ساد صمت غريب في باحات القصر، وأروقته، وصالوناته، ومطابخه، وانبعثت من أنحائه المختلفة أصداء خافتة، وانعقدت لقاءات جانبيّة. حتّى صوت جزمات الحرّاس الذي كان يطمئننا في العادة، تحوّل إلى سير خافت على رؤوس الأصابع. والعبيد الذين لا يوفّرون مناسبة ليهتفوا لصاحب الجلالة بطول العمر لاذوا بالكتمان. كذلك لم يعد لحركة الشخصيّات، والوزراء، ووليّ العهد في القصر أيّ معنًى يُذكر. فهم أيضًا كانوا يتظاهرون بأنّ كلّ شيء طبيعيّ، تمامًا كالمؤذّن في مسجد القصر الداخلي، الذي بات يدعو المؤمنين إلى الصلاة بنبرة كئيبة يكاد يحجبها أذان مساجد المدينة المرتفع. وحتّى وقت جلوسنا إلى مائدة الطعام، كنّا نتظاهر بأنّنا نأكل، ونتحادث بصورة طبيعيّة، ونعلّق على الحوادث اليوميّة المتّسمة بالعنف المتزايد. صوفيا، حفيدة سيدي المفضّلة، كانت أنجح منّي بكثير في انتزاع ابتسامة منه، بل تفوّقت عليّ بأشواط، وتعدّت بكلّ وقاحة على ميدان اختصاصي. أخجل من القول إنّني، في عامي السبعين، أشعر بالغيرة أحيانًا من تلك الطفلة الشقراء

المرحة، واللا مبالية، وصاحبة النزوات التي تبثّ البهجة في قلب مولاي. كم مرّة فاجأته وهو يتفرّس في وجنتيها المتورّدتين، وشعرها الذهبيّ الطويل، وعينَيها البندقيّتَي اللون اللتين تخفيهما تكشيرة الدلع الدائمة على وجهها. «جوهرتي الصغيرة البيضاء»، كان يتحدّث عنها مشرق الوجه كحال بدويّ من الصحراء أسمر البشرة وزنجيّ الملامح أمام جوهرة حملتها أمواج البحر من الشمال. كالمعجزة كانت بالنسبة إليه تلك الفتاة الصغيرة، والمرهفة، والشبيهة بالمسيحيّين الأوروبّيين، وذات البشرة البيضاء كالحليب، والتي كانت في عامها الثامن تجيد لغات غريبة بسبب مربّياتها الكثيرات، لغات شبيهة بالألغاز لا أفهم منها كلمة واحدة. كنّا، أنا وهي، نخوض معركة غير متكافئة. وكان عليّ أن أنهل من كنوز مخيّلتي لأضاهي قدرتها على إدخال البهجة إلى قلب مولاي، الذي طالما وَجد لذّة ماكرة في المنافسة السرّية المحتدمة بيننا. بأيّة حال، لم أكن ممّن يستسلمون للفشل. لقد تآلفتُ وأسرار القصر بما يكفي لأعرف رموزها جيّدًا، والألف حيلة وحيلة التي تسمح للشخص بالبقاء. لطالما كانت المنافسة خبزي اليوميّ. محال أن أدع طفلة صغيرة تزيحني من طريقها.

لا، لم أكن أحبّ صوفيا. ولكنّ أفراد العائلة الملكيّة كانوا من المقدّسات، في القصر كما في الخارج. كنت أبتسم كالجميع، وأشدّد على مدح الصفات الاستثنائيّة لهذا الملاك الذي أرسلته السماء إلى صاحب الجلالة، وجماله، ودهائه، وحسّ الفكاهة المدهش لديه، والذكاء الذي يُنعم به الله عزّ وجلّ على أصفيائه. منافق – قد تقولون – نعم، لا أختلف كثيرًا عن جماعة الذباب التي تحوّم حول النجوم في هذا القصر.

في المقابل، كانت الأمسيات لي. فحين تخلد الساحرة الصغيرة للنوم، أعود محطّ الاهتمام، ويعود مولاي لي وحدي، ويخصّني بنظرات إعجابه ويصغي إليّ بكلّ سرور، وينتظر منّي الكلمة المناسبة، والردّ السريع والذكيّ، والربط الذي لن يقوَ عليه إلّا علّامة مثلي، بين حادثة آنيّة وسالفة من سوالف بلاط أحد الخلفاء الأمويّين. فأروي له القصّة منكّهة ببعض الطرائف اللاذعة، والتطوّرات غير المتوقّعة التي تزيدها تشويقًا. كنت أطلق العنان لتخيّلاتي، فأعوّض ببراعة عن اللحظات التي سرقتها منّي تلك الفتاة البغيضة خلال النهار. حين يتحرّر ذهني من مقاطعاتها الوقحة، أعود إلى ممارسة وظيفتي الرسميّة بارتياح، فأسترسل في رواية الحوادث الخياليّة، حريصًا على جعلها حقيقيّة تمامًا. وحينذاك أحتفل باقتران الحقيقة بالخيال، وأبحر على هواي في العالم السحريّ لأحلام اليقظة. نعم، كنت أعود ساحرًا، وكائنًا فريدًا لا قدرة لأحد على الاستفادة منه، سوى الملك نفسه. أُخرج من خبايا النسيان قصصًا كانت مغمورة في رأسي وفي الغيوم السابحة في السماء، قصصًا خرافيّة مغلّفة بكلمات رقيقة، وصورًا غير مألوفة لم تكن تنتظر إلّا حلم يقظة شاعر يفتنها، ويدًا مرتجفة تقطفها وتضفر منها باقة أقدّمها بتواضع إلى مولاي.

كما ترون، إنّ الهدف الأسمى من وجودي العبثي في هذه الدنيا ما هو إلّا إسعاد الملك. فأنا لا أعيش لغير ذلك. ولا شيء في العالم يسعدني ويرضيني أكثر من رؤية وجه مولاي مشرقًا.

غريب هو قدري! أنا، محمّد بن محمّد، رجل من عامّة الشعب، لا يميّزني من سواي سوى قدرتي على حفظ كلّ ما أسمعه. لقد وهبتني السماء ذاكرة قلّ نظيرها بين البشر، قادرة حتّى على

تسجيل الهمس الذي يبلغ أذنيّ. أحفظ كلّ شيء... كلّ شيء! أستطيع أن أروي، وبأدقّ التفاصيل، محادثة عاديّة جرت منذ خمسين عامًا بيني وبين شخص جمعتني به معرفة عابرة. أمّا الكتب التي قرأتها، وقد قرأت الكثير، فبوسعي أن أُسمّعها كاملة، حتّى مع مقدّمتها، بدون إغفال فاصلة واحدة منها. صدّقوا أو لا، لقد منحني الله هذه القدرة المدهشة التي قد يصفها بعضهم بالموهبة، وهو وصف غير دقيق تمامًا، لأنّني أحفظ كلّ شيء، الجيّد منه والسيّئ. لن أروي عليكم أيّ جهد هائل بذلته لأتخلّص من الكراهية والأحقاد التي تنتج عنها، ومن الضغائن المرّة والجهنّميّة التي يعيشها الأشخاص غير القادرين على النسيان؛ لأنّ في المسامحة شيئًا من النسيان. لا بدّ من ذلك، وإلّا لكان الأمر صعبًا، بل مستحيلًا. حين يستعيد المرء تفاصيل إهانة تلقّاها في ماضيه، وتؤجّجها الذكريات الدقيقة كجمر نُفخ فيه، فإنّ تلك التفاصيل تقضي على الحسّ الإنسانيّ القادر على المسامحة، ويصبح مستحيلًا على ذلك المرء أن يغضّ النظر ويطوي الصفحة. لكنّ هذا موضوع آخر، وأنا لا أرغب اليوم إلّا في أن أروي عليكم حسنات هذه الذاكرة، والتي لها الفضل في ارتقائي السريع إلى الدوائر العليا للسلطة، وهذه النعمة الإلهيّة التي جعلت منّي ما أنا عليه اليوم، أي رجل الحاشية الأوّل لدى الرجل الأوّل في المملكة. أنا أقول وبدون أيّ ادّعاء إنّ مولاي يقدّرني أكثر ممّا يقدّر جموع الموسيقيّين والرواة وسواهم من المتزلّفين الذين تتألّف منهم الحاشية. أنا المحور الأساس الذي تدور حوله الأحاديث، والعلّامة الذي يجتذب بعلمه أذكى العقول. نعم، أدين بكلّ شيء إلى ذاكرتي، التي عرفتُ بغريزتي كيف أستفيد منها منذ نعومة

أظافري. دراسة القرآن والحديث النبويّ الشريف كانت بالنسبة إليّ أمرًا في غاية السهولة، كما أنّ حفظ ألف بيت من الشعر لأتمكّن من قواعد اللغة كان بالنسبة لي بسهولة شربة ماء ما أثار غيرة الكثيرين من رفاقي في مدرسة ابن يوسف. أمّا في الشعر، فلا يوجد شاعر لم أحفظ ديوانه كاملًا. هذه حقيقة الأمر، ولا طاقة لي به. عبثًا حاولت إفراغ فكري من الأمور التافهة التي تزدحم فيه. كان ذلك مستحيلًا، فأدراجه الكثيرة سرعان ما تنغلق رافضة التخلّي عن ذرّة واحدة ممّا تحتويه. وهكذا احتفظت على الرّغم منّي بما ينفع وما لا ينفع، بأشياء مهمّة وأخرى تافهة، وراكمت كمًّا هائلًا من المعلومات لو احتواها أيّ فكر آخر لأحدثت فيه تشويشًا وارتباكًا، لكنّ رأسي وعلى الرغم من صغر حجمه، اتّسع لها بسهولة. يكفيني أن أشدّ طرف خيط واحد حتّى أستعيد وبدون أيّ عائق كلّ ما يتّصل به من الذكريات. كان الماضي ينبسط أمامي كما تغمر مياه المدّ اليابسة، فيُزيح الحاضرَ من طريقه بكبرياء جدّ يتقدّم للوقوف أمام أبنائه وأحفاده. لقد كنت حريصًا على أن أوضح لكم هذا الأمر، لأشرح لكم كيف أنّ رجلًا في مثل حالتي استطاع الانضمام إلى حاشية ملك – العالم الذي لا يعرف الرحمة – ويصبح محطّ أنظار الجميع وحسدهم.

هذه الرواية المدهشة هي روايتي. الحقيقة أنّني لم أخترها، كما أنّني لم أعترض عليها، بل تركت الأمور تسلك مسارها الطبيعيّ، كما هي حال بقيّة البشر.

بدأ كلّ شيء بصداقة لا تخطر ببال. لم يكن ابن إبراهيم من الأصدقاء الذين قد أختارهم في العادة. فهو أوّلًا يكبرني بعشر سنوات، كما أنّ شغفه المعروف بالخمر والغلمان لا يتناسب مع

تربيتي المتزمّتة. فميلي الجنسيّ تقليديّ جدًّا، وفكرة معاقرة الخمر حتّى أعجز عن التحكّم بأفعالي تنفّرني إلى أبعد الحدود. لذلك فإنّ رفقة شخص كهذا كانت أمرًا مخالفًا لطبيعتي، خصوصًا أنّ علاقة من هذا النوع قد يُساء تفسيرها. وبما أنّ النميمة رياضة وطنيّة في بلادنا، فإنّ مرافقة ابن إبراهيم قد تفتح الباب أمام تأويلات شتّى. ولكن في المقابل فإنّ هذا الرجل – وأنا أزين كلامي بدقّة – كان وبدون أيّ منازع أكبر شاعر عرفته بلادنا.

كيف أروي بداية هذه الصداقة بدون أن أتحدّث عن أبي، محمّد، الذي كان يمارس مهنة الحلاقة؟ كان أبي أيضًا موسيقيًّا وحكواتيًّا، حلو المعشر، وصاحب معدن وموهبة قلّما نجد لهما نظيرًا. فكان من الطبيعيّ أن ينضمّ لحاشية الكلاوي باشا، زعيم قبيلة كان يسيطر على جنوب البلاد في زمن الحماية الفرنسيّة، وقد اعتمد عليه المحتلّون الفرنسيّون لفرض «السلام» و«التمدّن» على جزء كبير من أمبراطوريّتنا الثريّة. بالعودة إلى شاعرنا ابن إبراهيم – مدمن الكحول، والمثليّ جنسيًّا، والمفلس – فإنّ الانتماء إلى حاشية الباشا كان سبيله الوحيد للبقاء من الناحية الماديّة أوّلًا، ولكن أيضًا للنجاة، إذ كان بحاجة إلى الحماية من المخاطر الكبيرة التي تعرّضه إليها حماقاته الكثيرة. فمع حلول الليل يخرج ليتسكّع في حانات الجنود، ويعاقر الخمر حتّى يترنّح، ثمّ يذهب باحثًا عن فتيان يرضون بمشاطرته لياليه. كان الرجل صيّادًا ليليًّا يتنزّه في بلاد الإسلام وهو في شبه غيبوبة ناتجة من معاقرة الكحول، تجتذبه الأزقّة الفقيرة والقذرة في المدينة وما تحتويه من «كنوز». وفي المقابل، يمضي وقته كلّه في نظم القصائد التي تمجّد حاميه، أي سعادة الباشا. جرى اللقاء الأوّل بيننا في مطبخ القصر حيث اعتدتُ أن أتناول

طعامي، مستفيدًا من سخاء الزعيم الذي يمتدّ إلى أبناء خدّامه. كنت أصادف أحيانًا هذا الرجل الذي يتمتّع ببلاغة، ووقار، وعظمة في الروح تركت عميق أثرها فيّ حينذاك وأنا لا أزال طالبًا شابًّا. حقيقة الأمر أنّ ابن إبراهيم اشتهى في البداية مؤخّرتي المرتفعة التي وهبتني إيّاها الطبيعة، ولكنّه سرعان ما فهم أنّني لست من هذا النوع. ومع ذلك فهو لم يستسلم، بل واصل محاولاته التي، ومع توثيق عرى صداقتنا، باتت موضوعًا للنكات. بعد ذلك حوّل اهتمامه إلى فكري، وقدراتي غير الطبيعيّة على أن ألقي قصائد طويلة دفعة واحدة وبدون أيّ تردّد. فباتت محادثاتنا تطول في شوارع المدينة، وحدائقها، ولاحقًا في الحانات التي كان يرتادها مع هبوط الليل. كنت أحبّ التنزّه برفقته، وأستسلم إلى الأبيات التي يبدع بنظمها، فأتذوّق عصارتها كشراب إلهيّ. كذلك كنت أتبعه في هروبه إلى عالم الليل بمقدار ما سمحَت لي به أهوائي، وسجّلتُ في ذاكرتي كلّ صوت سمعته. كان ابن إبراهيم يحتسي الخمر فيما أنا أشرب الشاي بالنعناع بدون سكّر. كثير من الخمر، وكثير من الشاي، ينكّههما فيض من الكلام الجميل والفصيح. وكلّما أسرف في الشرب، استرسل في إلقاء القصائد العائدة إلى قرون غابرة، وعوالم بعيدة، وجاد برباعيّات كنت وحدي قادرًا وسط الجلبة على الاستمتاع بما فيها من قوّة، ورقّة، وجرأة، وشهقات مكبوتة، وسخرية، وتناقضات موفّقة. كنت أعيش لحظات من السحر يقدّمها إليّ على طبق من فضّة، لأنّه وبرغم السُّكر الشديد كان يدرك أنّني أفهم معناها، وأتذوّق البلاغة الممزوجة بموسيقى من تأليف الآلهة، والصور الشعريّة التي تنتفض للخروج من الأطر الجامدة للكلمات التي تحتويها، فتتطاير البلاغة والصور الجميلة في سماء

فكري المتّصل بفكره. كان ابن إبراهيم يقلع آنذاك عن قصائد الثناء لحاميه وما يرافقها من مبالغ وفيرة، ويعود إلى حقيقته، فيغنّي للحبّ الممنوع بكلّ أوجهه، ويمجّد الخمر والحريّة التي يمدّنا احتساؤه بها. وأشدّد على حرف «نا»، لأنّني كنت أشاطره إحساسه بالسُّكر.

نشأ بين هذا الرجل وبيني نوع من العلاقة التجاريّة. كيف أقول ذلك بدون أن أبدو في نظركم نصّابًا؟ كنت أحفظ تمامًا كلّ القصائد التي ينشدها وهو بحال السكر. وحين يستعيد وعيه في اليوم التالي في مطبخ الباشا، أبيعه إيّاها بسعر باهظ. وكان ابن إبراهيم يدفع ثمنها بدون أن يرفّ له جفن. ذات مرّة أعجبتني ساعة برّاقة حول معصمه أهداها إليه الباشا، فقرّرت أن أثير فضوله، وعلّقت بطرف الصنّارة طعمًا، هو كناية عن قصيدة نظمها بنفسه لكنّه نسيها، بعكسي. كنت أحتفظ في ذاكرتي بذهب خالص يسيل له لعابه.

– ماذا أنشدتُ أمس؟، سألني وعيناه الصغيرتان تلتمعان قلقًا.

– قصيدة رائعة! معجزة أدبيّة...

– أُتلُها عليّ!

– ذاكرتي تخونني في الصباح الباكر.

– كم تريد؟

نظرت إليه، وقيّمتُ درجة فضوله قبل أن أحدّد سعرًا.

– خمسة دراهم.

– لا أملك هذا المبلغ، قال معترضًا، أنفقت كلّ ما معي على الشراب أمس، وأنت كنت شاهدًا.

– أعجبتني ساعة يدك، قلت له مبتسمًا.

– إنّها هديّة من الباشا، ردّ بامتعاض.
– هذا شأنك أنت.
ورحت أستدرجه بتلاوة أجزاء من المعجزة:

صَنعَةَ الشِّعرِ لَقَد عا / فَتْكِ نَفسي فاترُكيني
أَدبِري عَنّي بِوَجهٍ / وَالقَفا مِنْكِ أَرِيني
... أُنظُري غَيري فَغَيري / راغِبٌ في الوَصْل مِنكِ
أُجلُبي النَّحسَ إِلَيه / وَأَرِيهِ عَيشَ ضَنْكِ

وفي الحال نزع ابن إبراهيم الساعة من يده ودفع لي الثمن الذي أردته.

يمكنني أن أقول اليوم، برغم شعوري بشيء من الخجل، إنّ هذا الرجل هو صانع ثروتي بكلّ ما في الكلمة من معنى. برؤيته يعيش تعلّمت أن أعيش وأضحك وأغنّي. وأخذت عنه دهاءه. تعلّمت كيف أباغت مَن يناقضونني، فأهاجمهم وأحوّل حججهم الواهية إلى موضوع هزء. حتّى إنّني أحيانًا كنت أثير صدمة الآخرين بدون اكتراث، راسمًا على فمي ابتسامة زهوّ كابتسامته. كما حدث يوم كان متّكئًا إلى بار في إحدى الحانات، حاملًا بإحدى يديه كأس نبيذ وبالأخرى سبحة، فتوجّه إليه رجل كثّ اللحية، وقف عند باب الحانة وخاطبه بلوم واضح:

– قل لي يا معلّم، كيف يستطيع رجل بمكانتك، ومشهور بثقافته الإسلاميّة، أن يشرب الخمر؟ هذه السبحة التي تحملها ستشهد يوم القيامة أنّك شربت الخمر!

بدون أن يبعد الشاعر عينيه عن الرجل المزعج، رفع سبحته وغمس لآلئها ببطء في الكأس. لبثنا ننظر إليه مشدوهَين.

– السبحة ستشهد أنّني شربت خمرًا، وأنا سأشهد أنّها سبحت في الخمر!

قد تجدون كثيرين هنا ممّن يملكون روايات طريفة يروونها حول هذا الرجل الذي عاش في مجتمع مبنيّ على المحرّمات ملعونًا ومقدّرًا في آنٍ واحد.

هكذا كان ابن إبراهيم، هذا الرجل الاستثنائيّ الذي، وبغير معرفة منه، ترك في مسار حياتي أثرًا عميقًا.

في نهاية المطاف طُرد المستعمرون من بلدنا، ومات الباشا العميل الذي شارك قبل سنوات قليلة في مؤامرة لخلع الملك. وانهارت معه أمبراطوريّته التي ظنّها الناس أبديّة. ثأر الشعب منه فأُحرقت أملاكه، وقُتل رجاله، واغتُصبت جواريه. كذلك أفل نجم الشاعر ابن إبراهيم، وأسلم الروح في حال من الفقر والذلّ. لكنّ شِعره بقي محفوظًا في ذاكرة الناس وبعض الأوراق التي توزّعت هنا وهناك.

بعد أعوام، أتت كوكب الشرق أمّ كلثوم في زيارة إلى مراكش، وتسنّى لي شرف أن أكون دليلًا لها. تلوت على مسمعها كثيرًا من قصائد ابن إبراهيم، «شاعر الحمراء» – كانت مراكش، التي ينتمي إليها كلانا، تُلقّب بالمدينة الحمراء. تأثّرت المطربة الكبيرة بهذا الشعر الفريد من نوعه، والذي جادت به قريحة رجل استثنائيّ عاش في القرن الحاليّ، لكنّ أدبه حلّق فوق قرون كثيرة أخرى. وكان أحد النجوم التي نادرًا ما تمنُّ علينا السماء بها.

بعد أيّام قليلة، أحيت «الستّ» حفلة غنائيّة خاصّة للملك، وفي تلك المناسبة أتت على ذكر ابن إبراهيم الذي بقيت أعماله مبعثرة وضحيّة للإهمال. كما عبّرت للملك عن إعجابها بذلك الشاعر الذي

يضاهي عمر الخيّام برأيها، وعن رغبتها في أن تغنّي قصائده وتحتفي بعبقريّته الفذّة. شعر الملك بالمفاجأة وبشيء من الصدمة، فوعدها بأن يعالج بسرعة هذا الخطأ الذي لا يُغتفر. وبعد رحيلها، استدعى في الحال كلّ الذين اطّلعوا من قريب أو من بعيد على أعمال ابن إبراهيم الأدبيّة، وسمح لهم بدخول مكتبة الباشا التي صادرتها السلطات، وأمرهم بأن يجمعوا في أسرع وقت أعمال الشاعر المبعثرة. وهو ما تحقّق في الأشهر القليلة التالية. ولا شكّ في أنّني كنت أحد الذين أوكلت إليهم هذه المهمّة.

حين قُدِّم ديوان ابن إبراهيم إلى الملك، أقام على شرفنا مأدبة عشاء فاخرة. كان جلالته يشعر بالسعادة والضيق في الوقت عينه، لأنّ الشاعر قد ألّف قصائد كثيرة جدًّا في مدح الكلاوي، الذي كان ألدّ أعداء الملكيّة. في خلال العشاء خاطبني الملك:

– أسمِعني هجاء نظمه ابن إبراهيم بحقّ ذلك الباشا المتعاون.

ساد الصمت القاعة.

– يا صاحب الجلالة، أجبته، لا أتذكّر أنّه فعل ذلك، ولا أظنّ أنّ ثمّة قصيدة هجاء بحقّ الباشا. ولكن حتّى لو فعل ابن إبراهيم ذلك، لما حفظتُ قصيدته.

– ولماذا؟، سألني الملك مستهجنًا.

– لأنّني أكلت في منزل ذلك الرجل، ونشأت في ظلّ حمايته. لقد مات طبعًا، ولكنني لن أكون مَن يلطّخ ذكراه.

آنذاك ساد القاعة صمت أشدّ وقعًا. أيقن رجال الحاشية الذين يعرفون الملك أنّ نهايتي وشيكة. ثمّ علت همهمات احتجاج سرعان ما أخرسها الملك فجأة. والتفت إلى زمرة المتزلّفين المحيطة به، وقال لهم:

– هذا رجل مخلص، ولن يكون أحد منكم مثله أبدًا.

غارت الرؤوس بين الأكتاف، وارتسم في تلك الوجوه التي اعتادت تغيير ملامحها بسرعة تعاطف مفاجئ. لقد أكسبني إخلاصي خمسة وثلاثين عامًا في القصر. رافقت الملك ليل نهار في مدن المملكة كما خارجها، وذلك حتّى وصلنا إلى المرحلة الحزينة الحاليّة التي يوشك فيها سيدي على مفارقتنا.

3

إنّ الدخول إلى قصر ملكيّ قد يُفقد أيّ شخص ثقته بنفسه. ففي الأروقة الواسعة حيث تتتالى الأبواب إلى ما لا نهاية، يسود جوّ يشبه الحرب يجسّده حرّاس يقفون بملابسهم وعدّتهم الفخمة، ووجوههم الخالية من أيّ تعبير، وحولهم جيش من العبيد بجلابيّاتهم البيضاء وأغطية الرأس الحمراء. عمالقة مثيرون للخوف، ومختارون بعناية من بين أفضل رجال أفريقيا، ينظرون إلينا نحن الأقزام بازدراء. وكلّما مرّ بتلك الأروقة أحد أفراد العائلة المالكة، تدوّي أصوات مبحوحة معلنة عن اقترابه، بإيقاع مضبوط تمامًا وبقوّة تثير القشعريرة في الأبدان. بالنسبة إليّ، أنا الذي نشأتُ في باحات قصر الباشا، لم تكن خطواتي الأولى في قصر سيدي اكتشافًا كبيرًا. كنت معتادًا أبّهة الباشاوات والضجيج الذي يرافقها وشعرت بأنّني في مكان مألوف. لا أعلم أيّة أفكار راودتني في ذلك اليوم الأوّل. كان دخولي الرسميّ إلى قصر الملك تحقيقًا لحلم يراود كثيرين من أترابي، لكنّه لم يكن من طموحاتي أبدًا. لعلّي في لا وعيي كنت أريد التشبّه بوالدي كما هي الحال غالبًا مع الفتيان في مثل سنّي. لكنّ شيئًا ما كان يهيّئني لتلك المهنة أو يجذبني إليها. كما أنّ عادة حني الظهر وثني الركبة كانت تثير اشمئزازي.

لم يكن المقام الذي رفعتني إليه ثقافتي يسمح لي بممارسة الانحناء والتزلّف. ومع ذلك... مهما أراد المرء أن يهرب من قدره، إلّا أنّ القدر يدركه ويردّه بخبث ليعيش كلّ ما هو مكتوب له.

وهكذا استمررتُ في ما بدأه أبي، وارتقيتُ به، وأعني بذلك وظيفة رجل الحاشية. ذلك الرجل، صاحب الهالة الاستثنائيّة، والذي كان يمسكني بيدي، طفلًا، بعد صلاة الجمعة، وهو يرتدي الجلابية البيضاء وينتعل بابوجًا معقوف الرأس، فنسير معًا بكلّ كبرياء في أزقّة المدينة. لا شكّ في أنّ علامات الخضوع التي كان تجّار السوق يظهرونها نحوه أدّت دورًا في ما آل إليه مصيري. كنت أحبّ أن أرى المساكين يتحلّقون حولنا لرفع شكاواهم ومظالمهم إلى الباشا بأيّ ثمن. بائسون تصبح مسألة حياتهم أو موتهم رهنًا برغبة أبي في أن يشفع لهم أمام سعادة الباشا. هل كنت مأخوذًا، وبدون علم منّي، بطبقة الحكّام؟ أي أولئك الذين يرفعون الإنسان إلى مكانة عالية، إلى حيث يرى باقي البشر كحشرات صغيرة تافهة؟ هل يجري في عروقي ذلك الدم الأسود الذي يثبّت أقدام رجال السلطة؟ أولئك الذين ينتهون بطريقة أو بأخرى إلى عقد صفقة مع الشيطان؟ تلك الفئة من الناس التي تبدو للوهلة الأولى عاديّة، ولا توحي بأنّها سيّئة، ولكنّها تضطرّ إلى اتّخاذ قرارات رهيبة يمليها عليها منطق أكبر منها؟ هل سأصبح بدوري دمية تحرّكها الصراعات المميتة التي يخوضها الملائكة والشياطين بشكل دائم، لم أكن أملك جوابًا. ترقّيت في ذلك المنزل الكبير كحشرة يجتذبها الضوء. وكان الفرح والخوف يتصارعان في ذهني وأنا أخطو خطواتي الأولى في قصر سيدي. لم يكن قلقي وجوديًّا، ولا تحت عنوان الماورائيّات. كنت فقط أطرح على نفسي أسئلة بسيطة، عاديّة،

براغماتيّة. كيف أضمن وظيفتي وأحميها من المصاعب والهفوات؟ هل كنت سأسحر الملك بعلمي أو سأخيّب أمله؟ كيف أفتح لنفسي ثغرة في جدار رجال الحاشية المخضرمين، والموسيقيّين البارعين، والقزم الأسود بودا، الوحيد الذي يستطيع أن يجيز لنفسه مخاطبة سيدي بدون كلفة؟ كيف أفرض نفسي بمواجهة مجموعة باتت لها بفعل السنوات العديدة التي قضتها في القصر قوانينها الخاصّة؟ كان لديّ الخيار بين الدخول بهدوء، على رؤوس الأصابع، بدون أن أثير حفيظة أحد، وبين الدخول عَنوةً، فارضًا في الحال موقعي كرجل فكر، وأميّز نفسي على الفور من باقي المهرّجين الجهلة. أعترف لكم بأنّ المرء يشعر في مثل هذه الحال بأنّه وحيد، وحيد بصورة مخيفة. فأيّة كبوة قد تكون قاتلة. كما أنّ إثارة امتعاض الملك منذ اليوم الأوّل قد يؤدّي إلى فقدان الحظوة في الحال، وإلى الأبد ربّما. من وجهة نظر معيّنة، ما كان هذا الأمر ليؤثّر فيّ تأثيرًا كبيرًا. ومع ذلك فأنا من صنف الرجال الذين لا يقبلون بالفشل. ربّما كان يحلو لأبي أن يردّد أنّ الهزيمة هي غالبًا أنفع من النجاح، لكنّي لم أتقبّل تلك الفكرة. فالفرق كبير بين أن آخذ بنفسي قرار الرحيل وبين أن أُطرد كما يُطرد الفاشلون. لم يكن خرّيج مدرسة ابن يوسف اللامع والمزهوّ ليرضى ذلك لنفسه. كان عليّ في خلال وجودي القصير أن أتغلّب على عوائق كثيرة، وأن أتخبّط لأرتقي إلى عالم أظنّه حقًّا مشروعًا لي. تسلّقت درجة بعد درجة سلّمًا صنعته بيديّ من حكايات خالدة، وقصائد رائعة، وذكاء لا يحدّه زمن. نجحت على الرغم من كلّ الصعوبات في إقناع أبي بإعفائي من أن أرث عنه دكّان الحلاقة. قد يبدو هذا الانتصار في عيون بعضهم تافهًا ولا قيمة له. ولكنّ إقناع والدي المجبّر بأنّ القلم قادر على إطعام صاحبه كان

بمقام المعجزة. ومع ذلك فقد ألزمني أبي بأن أعود بعد المدرسة للعمل في دكّان الحلاقة حتّى موعد الإقفال. فاضطررتُ إلى قضاء ساعات طويلة، أتلاعب بالشعر المدهن والمليء بالقمل، وأعالج الجروح، وأجبّر العظام، وأثبّت قضبان الخيزران حول الكسور وسط صراخ الألم، وأعرض صور عصافير خرافيّة للصبيان قبل ختانهم، ملائكة صغار يصرخون ويتخبّطون وغالبًا ما يُغمى عليهم...

عند دخولي إلى القصر ذلك المساء، لم أكن وحيدًا. كان صديقي ابن إبراهيم يمسك بيدي. كان حضوره الخفيّ يطمئنني وأنا أسير نحو قدري الجديد. كانت يدا الشاعر تتحكّمان بانفعالاتي، وتهدّئان شكوكي، وتخفّفان من اضطراب صوتي وارتعاشة يديّ، وتدفعان بي إلى التصرّف بكبرياء أمام جمهرة من أفراد الحاشية العدائيّين. لا شكّ في أنّني كنت أمثّل خطرًا، وعائقًا محتملًا بينهم وبين الحبّ الذي يكنّه السيّد لهم. كانت عشرات العيون تتفرّس بي، وتتفحّص قماش جلابيتي، ولبّاد طربوشي، وليونة جلد بابوجي الذي أهداني إيّاه والدي مؤخّرًا. كان ابن إبراهيم هو مَن تولّى ردّ الهجوم الأوّل، فاستعنتُ بكلماته حين خاطبني القزم، ولم أكد أجلس على الأريكة المخمليّة في الصالون الكبير، فقال:

– هل صحيح يا محمّد أنّ أهل مراكش...

– عفوًا يا صغيري، أجبته، يجب أن تتعلّم كيف تتكلّم كالكبار. حين تخاطب رجلًا بمثل ثقافتي، يجب أن تناديه «الفقيه محمّد».

فابتسم الملك وقال:

– أهلًا بالفقيه محمّد بيننا.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت «الفقيه محمّد»، أو ببساطة «الفقيه». ولم أعد الشخص العاديّ الذي يعمل كالباقين في القصر الملكيّ،

بل أصبحت عالمًا في خدمة الملك. واكتسبت في ثلاثين ثانية مكانة تليق بالوظيفة التي أنوي ممارستها لدى سيدي. مؤنس طبعًا، ولكن لا مجرّد مؤنس عاديّ، ولا في كلّ الظروف. وبأمر من الملك اعترف بمكانتي الثقافيّة كلّ مَن في القصر.

يكره المراكشيّون الصراعات كرهًا شديدًا، ويبتعدون عن المجابهات، أيًّا كانت. فهم أشخاص فرحون، يحبّون المزاح والمرح والتلميحات الجريئة. ولم أكن أختلف عنهم. وسرعان ما تحكّمتُ بكلامي، محوّلًا تعجرف العلماء إلى موضوع سخرية، ومعظم هؤلاء كانوا مملّين جدًّا، يجدون لذّة في أن يسمعوا أنفسهم يثرثرون ويستعرضون معرفة موسوعيّة هائلة لا تثير اهتمام أحد. وهكذا أصبح المدح أو الهجاء تمرينًا طبيعيًّا أمارسه في بداية عهدي بين أفراد الحاشية.

بناء على نصيحة والدي، وقبل أن أكسب محبّة الملك نفسه، شرعتُ بمحاولة كسب ودّ محيطه. لم يكن ذلك من الأمور السهلة. فمع أفراد الحاشية الرسميّين الكثر، والقادمين من أوساط مختلفة ومناطق وثقافات متناحرة، كان من الصعب جدًّا أن أتّفق مع بعضهم بدون أن أثير حفيظة الآخرين. خصوصًا وأنّ أطباع أفراد الحاشية هي عمومًا عرضة للتحوّل بين لحظة وأخرى، كما تتغيّر ألوان الحرباء، وفقًا لمزاج الملك. فكان من المستحيل أن أعرف تفكيرهم الحقيقيّ لشدّة الرغبة التي تتملّكهم في إرضاء سيدي. لا تخطئوا الظنّ بي، فكلّ ما أتّهم زملائي به ينطبق عليّ اليوم. لكنّني حينذاك لم أكن أعرف ذلك.

لذلك بدأتُ بالتقرّب ممّن بدا لي كسب ودّه سهلًا، أي المغنّي ساهر، وهو رجل مستقيم وودود، ومرهف لدرجة بات معها ضعفه

مصدرًا لقوّته. فقد كان فريسة سهلة جدًّا يستطيع أيّ مفترس في القصر القضاء عليها بسهولة فائقة. ومع ذلك لم يتعرّض إليه أحد لأنّه لا يشكّل تهديدًا لأحد. بعكس ذلك، كان يمتدح كلًّا من أفراد الحاشية وكأنّه الملك نفسه، وهو أمر كفيل بإثارة حفيظة صاحب الجلالة لولا أنّ هذا الأخير لم يكن يبالي. كان ساهر عازف عود مميّزًا، وصاحب صوت رخيم وحنون، ويعيش على كوكب آخر، بداخل عالم مقفل من الأحلام والشعر والموسيقى. وكنّا، أنا وهو، نتشاطر الولع بعمالقة الفنّ الشرق أوسطيّين أنفسهم من شعراء ومؤلّفين وموسيقيّين ومطربين، عاشوا في القرن الماضي. لذلك لم يكن عليّ بذل جهود كبيرة لأكسب صداقته التي دامت عشرات السنين.

جرت العادة أن نجتمع، بانتظار النداء المسائيّ، في صالون مريح قريب من جناح الملك الخاصّ. وهو عبارة عن قاعة كُسِيت جدرانها بسّجاد من المخمل الأخضر الياقوتيّ، طُرِّزت عليه آيات قرآنيّة بخيوط ذهبيّة، ورسوم قناطر تبدو كأبواب مفتوحة على عالم سرّيّ مخصّص للنخبة المختارة. كان ذلك الصالون مكانًا هادئًا كنهر قبل الفيضان، تُحاك فيه أقبح الحقارات التي يمكن للبشر بلوغها من الدسائس، والوشايات، والمؤامرات المشينة، وألف خيانة وخيانة قادرة على أن تقلب حياة البشر ومصائرهم رأسًا على عقب، وتقفل أمام بعضهم أبواب جهنّم لتفتح أبواب الفردوس، وبالعكس، أن تلقي بالرتب والمناصب العالية إلى الحضيض، فيصبح العبد وزيرًا، والوزير عبدًا. كلّ شيء رهن بالقرب من النور الملكيّ أو البعد عنه.

وحين يرتفع الصوت الرخيم والحازم لحارس الملك بالنداء المسائيّ، نهبّ واقفين هبّة رجل واحد، مفعمين يقظة وسرورًا، وندخل توًّا جناح سيدي، وكلّ منّا يحمل في جعبته رواية مثيرة، أعدّها سرًّا وخبّأها عن زملائه ليكون صاحب الجلالة أوّل مَن يستمع إليها. كنّا نتسابق على النجاح بسرقة الابتسامة الأولى من الملك. وبدون أيّ تباهٍ أقول إنّني كنت الأوّل في تلك اللعبة بلا منازع. ومع ذلك، لم أكن أعدّ شيئًا مسبقًا، بل كنت أفضّل الارتجال معتمدًا على ما أراه أمامي. وفيما كان رفاقي يجهدون في تكييف رواياتهم مع السياق الراهن، أكون أنا قد أطلقت عددًا من النوادر الطريفة واللاذعة. وحين يضحك الملك، فعلى المهرّجين أن يحذوا حذوه، فيقهقون وهم يتحرّقون غيظًا. تلك كانت مبارزتنا اليوميّة في قدس الأقداس، أعني به البيت الخاصّ لصاحب الجلالة. بدا ذلك المكان المقدّس صورة مصغّرة عن ساحات المدينة، نتربّع فيه على السجّاد الوثير، وننقسم إلى مجموعات منسجمة في ما بينها، كنموذج للحياة اليوميّة للناس العاديّين الذين لا يستطيع سيدي معاشرتهم. فهنا يتحلّق بعضهم حول لعبة ورق إسبانيّة ويعلو صياحهم ويتبادلون الشتائم السوقيّة المبالغ فيها، وهناك جمع يحيط بساهر وهو يشدو أغنياته الرائعة، وهنالك متفرّجون يؤجّجون الهذيان المسموم الذي يطلقه بودا القزم، وسذّج تجحظ عيونهم أمام نبوءات العرّاف بلال، أو يصدّقون الوصفات الزائفة لموسى طبيب الأعشاب... كان المكان ساحة مشعوذين مصغّرة حقيقيّة، يتابع سيدي ما يجري فيها بطرف عينه، وهو متمدّد على أريكة حاملًا بإحدى يديه كتابًا، وبالأخرى سبحة. ومع ذلك لم يكن يغفل عن شيء. فلم تفته قطّ معرفة مَن يغشّ في لعبة الورق (ولم يكن

ذلك صعبًا، لأنّي غالبًا ما كنت الغشّاش)، ويبتسم لنوايا القزم السيّئة من غير أن يوبّخه أو يعاكسه، ويهزّ رأسه طربًا حين يغنّي ساهر أغنية نادرة، وهو شارد في عالم الموسيقى القديم والمنسيّ...

وهكذا كنّا نملأ وقتنا ووقت مولانا حتّى صلاة الفجر، باذلين قصارى جهودنا لننسيه متاعب يومه الطويل، ونرفّه عنه بألف حيلة غريبة عجيبة، محوّلين هذا القصر المهيب الذي تخرج من بين جدرانه أخطر القرارات إلى مكان هادئ تحلو فيه الحياة.

أحيانًا، كان النداء المسائيّ يتأخّر، أو لا يأتي أبدًا. فيطول الانتظار لساعات، أو حتّى الليل كلّه. لكنّ الحاجب لم يكن يسمح لنا بالانصراف إلّا بعدما يتأكّد من أنّ سيدي يغطّ في نوم عميق. فنبقى أسرى قاعة الانتظار الملكيّة، وكلّ منّا يقتل الوقت على طريقته. من جهتي، كنت أشغل نفسي بقراءة كلّ ما يقع في يدي، أو بلعب الورق، مقاومًا بكلّ قوّتي إغراء الحلوى المعروفة بالمعجون، والمخبوزة بالعسل واللوز والجوز وأفضل أنواع الحشيش في منطقة كتامة، والتي تنتقل بيننا سرًّا. إسراف بسيط في تلك الحلوى كان كفيلًا بتحويل الانتظار الطويل إلى فترة من السعادة الخالصة. كنت أعرف تمامًا فضائلها الرائعة والمدهشة لأنّني أدمنتها في الماضي، لكنّني امتنعتُ عنها منذ فترة طويلة، بعكس بعض الأشخاص. هكذا كان يتعايش المحيطون بسيدي، غير المتجانسين في الفكر أو الاهتمامات، والذين نشأت بين بعضهم صداقات وثيقة، وبين بعضهم الآخر عداوات مكتومة وشديدة. باستثناء الدكتور مورا، كان ساهر الشخص الوحيد الذي يُجمع أفراد الحاشية على صداقته. لم تبدر منه قطّ كلمة عالية النبرة أو نظرة لؤم. بل كان دائم الابتسام،

وحتّى في لحظات حزنه الذي يرتسم بوضوح على وجهه. كان يختبئ خلف عوده ونظّارته السميكة، حتّى نراه فجأة وقد انفصل عنّا محلّقًا في عالم سماويّ، وآنذاك لا يستطيع شيء أن يعيق طيرانه. كان خجله يزول فجأة، وحركة رأسه ترافق أنغامه، كأنّها تريد تطويعها أو ضبط تدفّق النوتات ومنعها من السقوط في فخّ الفوضى. كان ساهر يبدو وكأنّه يطفو على غيوم خفيّة، ويراقص ملائكة من نور لا يراها أحد سواه، ويُسمع في غنائه الرخيم أنينٌ موجِع، يقارب حدّ البكاء، إذا ما جاءت خاتمة قصّة الحبّ التي يغنّيها حزينة. كان ساهر صديقي الحقيقيّ الأوّل في قصر الملك، وظلّ كذلك حتّى يوم مماته الذي باغتنا قبل أوانه بكثير، مثلما يحدث غالبًا لأفضل الذين بيننا. جمع بيننا عشق كبير للشعر والموسيقى الراقية، فكنّا نتحادث طويلًا عن الحياة الصاخبة التي عاشها هذا الشاعر أو ذلك، والظروف التي كُتبت فيها هذه القصيدة أو تلك، والقيود التي فرضها الزمن... سأروي لكم لاحقًا قصّة ساهر. وهي قصّة جميلة وحزينة جدًّا، مثلما هي القصص في بلادي عادة.

صديقي الثاني كان الدكتور مورا. كان سيدي دائم الخشية من المرض، ولذلك حُكم على هذا الطبيب الشجاع بأن يبقى قريبًا من الملك مسافةً ممنوع أن تزيد عن مئة متر. كان ذلك عقابًا أبديًّا لا نجاة منه على الإطلاق! فُرض على الدكتور مورا أن يلازم مولاي في أيِّ وقت ومهما كانت الظروف. كان الرجل صاحب موهبة موسوعيّة. وأشهد أنّه كان قادرًا بنظرة واحدة على أن يعرّي المرء ويخترقه، ويكشف النقاب عن كلّ تاريخه الطبّي كما تاريخ أبيه وسلالته كلّها. لكنّه كان ضحيّة موهبته تلك، والشخص الأكثر بؤسًا بيننا بدون أيّ شكّ. كانت أمّي تقول «مَن يمتدح جمال مؤخّرته، لن

يمكنه الجلوس عليها أبدًا!». خسر الدكتور مورا حرّيّته إلى الأبد، بعكسنا نحن، أفراد الحاشية الآخرين، الذين كنّا نستطيع الفوز بإجازة أيّام قليلة في فترات الأعياد. مجرّد التفكير في أنّ الطبيب بعيد كان يصيب الملك بطفح جلديّ، فأمره في النهاية بأن يقضي وعائلته حياتهم كلّها في القصر. يأتي هذا الطبيب من بلدة قريبة من مراكش، لذا نشأت بيننا في الحال وحدة مناطقيّة. وسرعان ما قرّبت بيننا لكنتنا الغنّاءة كلكنات مناطق جنوب البلاد. كان رجلًا قصير القامة، قويّ البنية، ممتلئ البطن، أصلع الرأس أكثر منّي بكثير، قاسي الملامح، ويشبه الأشخاص الذين يوحون بأنّهم وُلدوا عجائز. يصعب على المرء أن يتخيّله طفلًا يتعلّق بأطراف ثوب أمّه. ومع ذلك، كان يحاول التخلّص من هذه الصورة اللصيقة به، فيروي علينا نوادر يفترض أنّها طريفة، ولكن عبثًا. كان يسترسل في شروح طويلة ومثقلة بالحجج تنسينا بداية الحكاية، فنضحك لارتباكه، لا للنكتة التي يرويها. لكنّ الدكتور مورا لم يكن يلحظ ذلك، فيشاركنا الضحك من كلّ قلبه. كان رجلًا طيّبًا وصاحب سلوك لا غبار عليه منذ نعومة أظفاره، كرّس حياته لتحسين كلّ ما يقوم به، وللوصول به إلى درجة الكمال. كان الحلول بين الأوائل في مهنة الطبّ هدفًا أسمى بالنسبة إليه، بل علّة وجوده، وديانته حتّى. والمنحة التي قدّمها إليه المحتلّ الفرنسيّ، والتي نادرًا ما نالها أحد سكّان البلاد الأصليّين، استحقّها كلّ الاستحقاق. فقد أصبح مع بزوغ فجر الاستقلال البروفسور الوحيد في الطبّ في بلدنا كلّه. هذا الموقع قاده إلى منزل الملك بصورة طبيعيّة (وأكاد أقول حكم عليه بملازمته). بذل الدكتور مورا، الذي نشأ في عائلة متواضعة، قصارى جهوده ليصنع لنفسه مكانة مرموقة، مستخدمًا لذلك كلّ ما

يملك من أسلحة، على تواضعها. فاستعرض قدراته الثمينة بائعًا روحه للشيطان، ومقامرًا بكرامته لينتهي به المطاف دائرًا في فلك يجهل عنه كلّ شيء، واستسلم، مثلنا جميعًا، لضوء السلطة الباهر والذي لا يُقاوَم. أصبحت النزوات، والأوهام، والنزعات، والأشباح خبزه اليوميّ. سهر الدكتور مورا على صحّة الملك كما لم يسهر عليها أحد قبله. وكان يعرف كيف يهدّئ قلقه ويروّض شياطينه. لم تكن معالجة الملك أمرًا سهلًا، فالدكتور مورا عاش وسيف الخطر مُصلت فوق رأسه. ليس من لعنة قد يتمنّاها إنسان لإنسان آخر أفظع من أن يكون مسؤولًا عن صحّة الملك. كانت أمّي تقول: «حين يريد الله أن يعاقب نملة، يعطيها جناحين». لا شكّ في أنّ الدكتور مورا كان يفضّل أن يكون مسؤولًا عن مستشفى متواضع في مراكش على أن يبسط جناحيه كالطاووس في الحدائق الملكيّة الشاسعة. وضعه الصعب والمحفوف بالخطر ولّد لدى سائر أفراد الحاشية تعاطفًا كبيرًا معه. كيف يحقد المرء على رجل مهدّد في كلّ لحظة بأن يُساق إلى الإعدام؟ وعلاوةً على ذلك، كان شخصًا خدومًا جدًّا يعالج الناس كلّهم بدون تمييز، فيهرع توًّا إلى أسرّة أفقرهم. كم مرّة رأيته يسرع لمعالجة مريض من قرية التواركة، قرية العبيد الذين أُعتقوا وأُدخلوا في خدمة القصر، والواقعة إلى شمال الحصن، برغم أنّ سيدي ما كان ليجيز أمرًا كهذا قطّ...

لقد بدأتُ بوصف أفضل مَن في وكر الأفاعي حيث أمضيت جزءًا كبيرًا من حياتي. فكما أنّ القرب من السلطة يولّد وحوشًا، فقد يُنتج أحيانًا أشخاصًا جليلين كان من الممكن وصفهم بالقدّيسين لو عاشوا في زمن آخر. باستثناء الموسيقيّ ساهر والدكتور مورا

الذي لا يمكن الاستغناء عنه، كان محيط سيدي يتألّف من زمرة أشخاص عديمي الأخلاق، لا يملكون ذرّة من الاستقامة أو الإنسانيّة. وخلال السنوات الطويلة التي قضيتها بجانب سيدي، تسنّى لي أن أشاهد حالات استثنائيّة، وغريبة، ومفاجئة حتّى بالنسبة إلى رجل مثقّف تحوّل إلى مؤنس في بلاط الملك. لكنّني أصبحت من أجل البقاء شخصًا انتهازيًّا. ولم أعد أتردّد في استغلال أخطاء زملائي لأتميّز عنهم، وقد كان ذلك سهلًا جدًّا لشدّة غبائهم. كانت أفعالهم ينبوعًا لا ينضب من القصص التي أملأ بها نوادري، والفكاهات المطلوب منّي سردها دائمًا. كان سيدي يغضّ الطرف عن عجز الآخرين، لكنّه لم يتسامح قطّ مع أيّ هفوة أقع فيها. فمكانتي كفقيه، والتي فرضتها على الآخرين منذ اليوم الأوّل، لم تكن تسمح بأيّ تراجع في أدائي. كان على كلّ كلمة أقولها أن تساوي وزنها ذهبًا من حيث اللباقة والذكاء. كانت حماقات رفاقي خير عون لي في عملي وجعلتني أصل به إلى الكمال، وأمدّني جهلهم المعيب بخشبة خلاص، بل بعصيّ أضربهم بها، وخيطان ثمينة أحوك بها رواياتي وأطرّزها بكثير من الخيال. وأحيانًا كنت أدخل عنوة في شقوق أدمغتهم الصغيرة، وأدع قريحتي تصول وتجول كما تشاء، فأحوّل السخرية إلى فنّ راقٍ. كنت كرسّامي الكاريكاتور أضخّم ملامحهم إلى حدّ تسخيفها، بدون أن أقع في فخّ التجريح. ومع ذلك، كم مرّة لجمت في اللحظة الأخيرة كلمات قاتلة، جارحة، تسعى إلى الثأر... كم مرّة رغبت في الانتقام من القزم المفترس الذي يتمتّع بحظوة الملك... ذلك الكائن الأسود القصير القامة الذي اجتمعت فيه حقارة الغيرة، والخبث، وسوء النيّة حتّى بات أوّل المكروهين في مجموعتنا. حشرة تنفث سمومها في كلّ

مكان، وكتلة من الأشواك ترعب المجموعة بكاملها، برغم أنّ نفخة واحدة تكفي لطرحه أرضًا. أشعر بالخجل ممّا سأقوله الآن، لكن وبصراحة، ومع أنّني أضمرت له كرهًا شديدًا فقد كنت أجده ظريفًا أحيانًا، بل في غاية الطرافة، حين ينقضّ كوحش ضارٍ مُمزِّقًا بمخالبه السامّة شخصًا أعزل، خجولًا، يبتسم رغمًا عنه. من الصعب أن يدافع المرء عن نفسه بوجه الهزء حين يكون الجمهور ضدّه. وقد كان ذلك المشعوذ قادرًا على عزل فريسته بسهولة، كحيوان ضار، ليقدّمها لنا وجبة سائغة. كان سيدي يشجّعه باسمًا على أن يستفيض في جنونه وكأنّ ما يقوله ليس سوى كلام الملك نفسه. بتعبير آخر، كان الملك مستعدًّا ليأكل مزيدًا من الثوم ما دامت الرائحة الكريهة ستخرج من فم القزم. كان هذا الأخير يهاجم الآخرين، لكنّه تحاشى مهاجمتي مباشرة. بل كان يفعل ذلك مداورة وتلميحًا كالجبناء. عرف نقطة ضعفي، فلم يوفّر فرصة للتذكير بها، فيقول عبارات مثل «الكلاب لا تنجب هررة!»، أو «دم الخيانة يُورَّث!»، أو ألف تلميح آخر إلى ابني المتمرّد على الملك والقابع في أحد سجون الجنوب. كان الردّ على هجماته سينزلني إلى مستواه، لكنّني لم أكن مستعدًّا لأدعه ينجو بأقواله. بل بعكس ذلك، كنت أهيّئ أسلحتي بهدوء، وأضرب حين لا يتوقّع ذلك. كانت ردودي دائمًا على قدر استفزازاته. فيتلقّى بدوره الضربات بدون أن يبدر عنه أيّ ردّ فعل. كنّا متكافئين في لعبة توجيه الإهانات. فنشأت بيننا هدنة طبيعيّة. كانت هشّة طبعًا، ولكن كما يحدث غالبًا في الحروب الباردة، دامت فترة أطول بكثير ممّا كان متوقّعًا.

4

لعلّ وصف «الذوّاقة» هو الأنسب لتحديد شخصيّتي بكلمة واحدة. فسواء أكان في الأقمشة أم الموسيقى أم العطور أم الطعام، كان الذوق الرفيع صفتي الأولى. لم أبحث يومًا إلّا عن أفضل ما جادت به الطبيعة أو الإبداع البشريّ. برغم أصولي المتواضعة، وولادتي في منزل صغير متداعٍ وسط مباني المدينة، فإنّ تردّدي منذ طفولتي على منزل الباشا، حيث عمل أبي، قد ترك أثرًا عميقًا في طبيعتي. من بين ذينك العالمين، سرعان ما اخترت عالم المنتصرين، فأتحت للأرستقراطيّة أن تسري في عروقي. وبات ميلي إلى الطعام الفاخر، والجماليّات، والحركة المدروسة، والسير بخفّة بمنزلة طبيعة ثانية لديّ بعدما بلغت سنّ الرجولة.

كانت قاعة الطعام الخاصّة بالموظّفين لا توفّر أيّ شعور بالراحة، فمصابيح النيون تبثّ فيها نورًا اصطناعيًّا مؤذيًا، كما أنّها دائمة الجلبة والنشاط. ولم أكن أتناول الطعام فيها إلّا مرغمًا، وفي غياب الملك. وكنت أفضّل الانتظار في جناح الملك حتّى ينتهي سيدي من طعامه لأتذوّق الوجبات الفاخرة التي تقدّم إليه. الحقيقة أنّ الملك بالكاد كان يلمس الطعام الذي يأتيه به القائد موحا على طاولة ذات عجلات، والمحفوظ ساخنًا في أطباق تعلوها أغطية

فضّيّة برّاقة، أشمّ رائحتها الشهيّة وهي في طريقها إلى الملك. عند الصباح، كنّا نحظى بعجّة لذيذة بلحم الجمال المجفّف، وفطائر بعسل الأوكاليبتوس، وأنواع متعدّدة من الحساء الأبيض والكعك الطريّ. أمّا بالنسبة إلى العصير، فالابتكار كان عادة دائمة: الزنجبيل، واللوز، والغوافة، والمنغا، إضافة إلى فاكهة الموسم. كانت السعادة تغمرني حين أفكّر في الأطايب التي تنتظرني في القصر. وما أكاد أستيقظ حتّى أقفز من السرير كطفل صغير، وأُتمّ وضوئي وصلاتي بعجلة، لأسرع إلى جناح الملك، جاهزًا ليوم من الضحك والمرح. كثر منّا كانوا يأتون منذ الصباح الباكر إلى جناح الملك، ولكن لأسباب مختلفة. لم يأتوا جميعهم مثلي بدافع الجوع. كان الوزراء والقادة العسكريّون وكبار الرسميّين يتدافعون في تلك الغرفة أيضًا، وكلّ منهم يحمل ملفًّا ضخمًا يريد من الملك أن يوقّع عليه في الحال. لكنّهم كانوا بحاجة إلى ضمانة الحاجب المسؤول عن وجبات سيدي، أي القائد موحا، الرجل النحيل، الحادّ الملامح، النبيل المشية، والذي لا تتوقّف عيناه عن الحركة. كان ابن العبد هذا صاحب سلطة أكثر من كلّ أولئك الأعيان مجتمعين. مضى عليه في خدمة الملك زمن بعيد، فكان يحظى بامتياز معرفة مزاج صاحب الجلالة قبل الجميع. كانت المعلومة التي يملكها غاية في الأهميّة وتساوي ذهبًا كثيرًا، يملك وحده أن يعطيها أو يحجبها، حسبما يشاء. فحين يغادر القائد موحا جناح الملك، وتتوجّه إليه الأنظار، إمّا أن يهزّ برأسه مبتسمًا، أي أنّه يمكن للآخرين التوجّه إلى الملك بدون خطر على حياتهم أو أقلّه على وظيفتهم، وإمّا أن يرفع سبابته معقوفة كذيل العقرب، وذلك يعني أنّ في مصلحة هؤلاء السادة أن يوضّبوا أوراقهم بسرعة ويؤجّلوا إلى الغد موضوع

زيارتهم الطارئ. كان الرسميّون يدركون تمامًا هشاشة مكاناتهم، وقدرات الحاجب المخيفة، لذلك كانوا يجزلون في ملاطفته، ومعاملته بكياسة ظاهرة، ويتنافسون في إظهار ودٍّ لم يكن يجهل دوافعه. كانوا جميعهم مستعدّين لمنح القائد موحا أكبر الخدمات، شرط أن يتنازل ويشير إليهم بإصبعه عند الحاجة!

يلقّب تجّار السوق دكاكينهم «بقبور الحياة»، ولذلك سبب وجيه! فالحاجة الدائمة للبقاء في الدكّان منذ الفجر حتّى المغيب تبرّر هذه التسمية الكئيبة، والتي أستطيع بدوري إطلاقها على قاعة الانتظار حيث أمضيت فترات كاملة من حياتي. هذا المكان الذي كان يفيض في الماضي سرورًا وراحة بال، أصبح حزينًا جدًّا وكأنّ السحر لم يفعل فعله فيه قطّ، وكأنّ الأشباح محت بحركة واحدة التعليقات الذكيّة، والضحكات المجنونة، وأصوات الملائكة، والردود السريعة والأسطورية.

كنت أنتظر بقلب منقبض أن يشعر سيدي بالحاجة إلى وجودي، ويرسل في طلبي. كنت أصلّي ليأتي الوقت الذي أهرع فيه إلى غرفة نومه، فأروي بحماسة طرائف جديدة، وجريئة قليلًا، كما يحبّها، والتي كانت جعبتي ملأى بها. خلال هذه السنوات الطويلة التي لازمنا خلالها الملك ورفّهنا عنه، كنت أجهل أنّ العكس قد يكون صحيحًا أيضًا. كنت أشتاق إلى حضور سيدي الجسديّ. فصوته ونظرته وأوامره وسخريته وتعابير وجهه الهازئة وحتّى نوبات غضبه، كلّها تركت فيّ فراغًا موحشًا يستحيل ملؤه. كنت أجهل ما أفعله بشخصي الثقيل، بفكاهتي غير المجدية والتي باتت سوداء وبشعة، بابتساماتي التي تحوّلت إلى تكشيرات جامدة وكاذبة. ما الذي يمكنني عمله سوى الانتظار، وأنا ألعب بحبّات سبحتي على

أمل حدوث معجزة؟ لكنّ الدكتور مورا كان واضحًا: سيدي لن يبقى حيًّا حتّى يوم الجمعة المقبل ليؤمّ الصلاة في المسجد، إلّا أنّ أحدًا لم يرد أن يصدّق، وخصوصًا أنا، لأنّ شيئًا لم ينبئنا بمثل هذا التدهور المباغت في صحّة الملك. ظننّا أنّه كالعادة يبالغ في القلق على صحّته، ويلاعبنا بإثارة خوفنا، وسيستعيد عافيته بسرعة. كيف يمكن تخيّل نكسة كهذه، عنيفة ونهائيّة؟ منذ ما لا يزيد عن أسبوع، ظهر فجأة في قاعة الانتظار حيث كنت مستلقيًا على الأريكة عينها التي أجلس عليها اليوم، وإذ رآني أنتفض أمرني: «إيّاك أن تتحرّك!». كان يعتمر طاقيّة حِيكت بالسنّارة، ويرتدي عباءة كتّانية عاجيّة اللون. وجلس إلى جانبي واضعًا قديمه على مسند. بدا في مزاج لاهٍ، وقال لي بحاجب مرفوع وابتسامة على طرف شفته:

– ذكّرني بذلك المقطع في رواية ألف ليلة وليلة... حيث يهبط مسعود من الشجرة ويعاشر السلطانة الخائنة على الأرض.

انطلق سيل الكلام من فمي حتّى قبل أن ينهي سيدي جملته. عدتُ إلى ذاكرتي، وفتحت أدراج القصص، وبفرحة طفل استعاد لعبة أُخذت منه بالقوّة، غصت في الرواية الخرافيّة التي طلبها إليّ، من دون أن أنسى أيّ تفصيل يتعلّق بالعبيد العشرة الذين تنكّروا بأزياء نساء، أو بحفلة المجون التي جرت بقرب الينبوع... ثمّ استعدت دور المثقّف الرزين في حديثه، ممتدحًا فكر شهرزاد المتوقّد والماكر، التي كانت تتحدّى الموت لتحافظ على وعدها. لا، لم يكن بعيدًا جدًّا ذلك الزمن حين كان سيدي يتعلّق بشفتيّ كما كان شهريار يتعلّق بشفتَي المرأة الجميلة والمذهلة، التي تسحره بقصصها.

ها هو القائد موحا يحاول إدخال عربته إلى غرفة الملك، الذي عاجل بصرفه، لكنّ الحاجب لم يستسلم، بل راح يستعرض أسماء عدّة أنواع من العصافير. كان سيدي يرفض أن يأكل وينفر من وجودنا، ويأمر بإشعال البخور مخالفًا أمر الطبيب الواضح بذلك، ويئنّ ألمًا ويحنق على نفسه لأنّه يئنّ، ويبكي، ويستبدّ به الغضب لعجزه عن حبس دموعه. كنت أسمعه وأتألّم، وكذلك كان القائد يتألّم. كان يلعن عجزه، لكنّه ظلّ واقفًا هنا، مسدلًا ذراعيه، جامدًا كوتد، قبالة الحرّاس الذين بدوا ينظرون إليه وكأنّهم لا يرونه، أو كأنّ وجوده لم يعد له سبب بعدما توقّف سيدي عن تناول الطعام، أو كأنّهم سئموا سلطته وتعجرفه. كانت عوالمنا على وشك أن تتداعى بدون أن نستطيع، أو أن نعرف، كيف نردّ. كنت أجد صعوبة في أن أفهم كيف يستطيع زملائي مواصلة اللعب بالورق والتشاجر، هازئين بالموت الذي يحوم حولنا، ومتجاهلين السيّد الذي يعاني آلامًا مبرّحة في الغرفة المجاورة. منعني القائد من زجرهم، وأكّد لي حاجتهم إلى التصرّف على هذا النحو، وأنّ سلوكهم المرح قد يُخرج سيدي من عزلته. وشاطره الرأي الدكتور مورا، الذي جلس متقوقعًا عند قدم الأريكة، عابسًا، وقد تخلّى عن غروره بوصفه طبيبًا مخلّصًا. وأومأ إليّ برأسه يدعوني أن أعود للجلوس والحفاظ على هدوئي. كان ساهر مغمض العينين يداعب أوتار عوده عازفًا نوتات حزينة تتصاعد في الهواء كتنهيدات. لا شكّ في أنّ تلك كانت طريقته في البكاء. وكما بفعل المعجزة، ارتسم على وجه القزم بودا البشع تعبير إنسانيّ. لكنّني كنت أجهل ما إذا كان سبب ألمه الخسارة الوشيكة لرجل عظيم، أو لامتيازاته. وبالقرب من الدرج المؤدّي إلى المنبر الكبير، جلس العرّاف بلال القرفصاء معتمرًا عمامة من

الساتان الأحمر، وهو يسحب المرّة تلو المرّة ورق اللعب محاولًا قراءة المستقبل، بدون أن تتغيّر النتيجة. فتعلو وجهه تكشيرة الاكتئاب كلّما ظهرت بين يديه ورقة السيّدة السوداء، تليها ورقة الحاجب مقلوبة. أمّا عالِم الأعشاب موسى فلم يعرف الراحة، وقضى الليل كلّه في إعداد ما سمّاها «تعويذة قويّة للتخلّص من النحس»، وطلب وضعها تحت وسادة الملك بأيّ ثمن. كان يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابًا، ويتلو صلوات غير مفهومة، مؤرجحًا مبخرته التي انبعثت منها رائحة كريهة أثارت غثياني، سببها احتراق مزيج سلفات البوتاسيوم والشحم، المقصود به طرد عين الحسد. ثمّ أعطى القائد موحا تركيبة مشكوكًا فيها وسأله إقناع الملك بشربها، فوقف الدكتور مورا فجأة، ونفض عنه يأسه ليستعيد دوره كطبيب ويعارض ذلك بقوّة، صائحًا:

– لا مكان للمشعوذين في قصر ملكيّ! ارمِ بهذا السمّ في المجارير!

التفت الحضور المصعوق نحو الطبيب. كانت تلك المرّة الأولى التي نراه فيها يخرج على طوره. لكنّ موسى، الذي نُعت بالمشعوذ، كان أوّل مَن انفجر ضاحكًا فتلاه الآخرون كلّهم. حتّى القائد موحا المعروف برصانته الأسطوريّة، لم يستطع الامتناع عن الابتسام. نقّلت نظراتي في ذلك المكان الفريد من نوعه، المليء بعجائز ظلّوا غرباء برغم السنين الطويلة التي قضيناها معًا، وكلّ منهم يبدو أنّه يعيش في عالمه الخاصّ. ثمّ عقدتُ العزم على أن أقوم بشيء ما.

لا أريد أن أتباهى هنا، ولكنّني كنت في الماضي الشخص الوحيد القادر على تبديد غضب الملك. الجميع هنا يؤكّد لكم ذلك.

كنت بارعًا في فنّ الارتجال، وقادرًا على تغيير أسوأ الأوضاع وأَحرَجها، وتحويلها من حالة دراماتيكيّة إلى موضوع للسخرية، معتمدًا على ترسانة غنيّة بالحيل والتعليقات الساخرة والذكيّة والمفاجآت، فأطلق سهامي في الوقت الملائم، لتصيب هدفها في كلّ مرّة. كنت ألجأ مثلًا إلى تضخيم المشكلة الراهنة ثمّ أعمد إلى تخفيف وقعها بطرفة لاذعة، مذكّرًا الجميع بأنْ لا شيء يستحيل العودة عنه، باستثناء الموت. كم من مرّة ظهر، بعد هدوء الانفعالات، أنّ الموضوع الذي ألهب المشاعر كان تافهًا. وهكذا كنت أحوّل الغضب إلى طرفة، ومزاج سيدي السيّئ إلى حديث يغلب عليه المرح، ولكن شرط أن أعرف مسبقًا جوانب المشكلة برمّتها.

ولكنّنا أحيانًا كنّا نشعر بالكآبة بدون سبب ظاهر، حين تشتدّ الآلام على الملك فيستيقظ لديه بغض شديد للجنس البشريّ، ويستحيل علينا مخاطبته بدون أن يثور بنا! كما حدث صباح أحد أيّام شهر أيّار/مايو حين كنت مبتدئًا، أشقّ دربي لأترقّى في أوساط حاشية القصر، وبأيّة طريقة! يومذاك غصّت قاعة الانتظار بكبار الشخصيّات من مدنيّين وعسكريّين، كما برجال الأعمال الأجانب الذين نعرفهم من خدودهم الورديّة اللون وإفراطهم في المجاملة. كانت ساعات قد انقضت على انتظارنا حين رأينا القائد موحا يغادر غرفة الملك متجهّم الوجه، رافعًا سبابته معقوفة، ما يعني أنّ اللعب بالروليت الروسيّة مجازفة أقلّ خطورة من مخاطبة الملك. ولم يكن الأمر بدعابة. إنّي أحدّثكم عن زمن بلغ سيدي فيه ذروة المجد، وكان اسمه وحده كافيًا لترتعد الفرائص. لم يكن أحد يجرؤ على ذكر اسمه إلّا بصوت خافت، وهو ينظر خلفه خوفًا من الآذان المترصّدة والتي قد تشي به... سيطر على المدينة رعب مرضيّ

حينذاك، زادت من وطأته صورة الملك الرسميّة الحاضرة في كلّ مكان: في المخازن، والمنازل، والإدارات العامّة، والشوارع، وفي أنحاء المملكة كافّة. أسهمت تلك الصورة في المحافظة على جوّ الفزع السائد. كان الشعب يظنّ في لاوعيه أنّ صاحب الجلالة قد يظهر في أيّ وقت ويأمر بإنزال عقاب جماعيّ. ولم يكن رجاله ممّن قد يُنعتون بالرؤوفين. فكم من شخص توارى عن الأنظار بتهمة «التآمر على أمن الدولة». ومع ذلك كنّا متأكّدين من أنّ سيدي، وبرغم الرعب الذي يبثّه، لا يزال يوحي لشعبه بالحبّ الحقيقيّ، خارج القصر كما داخله.

يومذاك، كانت إحدى عمّات الملك، وتُدعى لالة ياقوت، قد أسلمت الروح، ومن الضروريّ إبلاغه على عجل لكي يقوم بالترتيبات المعهودة. كانت علاقة سيدي بالمرأة المتوفّاة مميّزة ويعدّها دائمًا أمًّا ثانية له. كما دأب على الاستعلام عن حالها الصحّيّة التي تردّت مع العمر، ولم يقبل إلّا على مضض إصرارها على العيش في إحدى مدن الشمال، بعيدًا عن ضوضاء العاصمة. كانت لالة ياقوت مستعدّة لمواجهة كلّ العوائق لكي تحمي الأمير اليافع، والمشاكس والأرعن، وصاحب النزوات التي تثير غيظ أبيه الصارم جدًّا في الالتزام بالمبادئ. غالبًا ما كان الضرب بالقضيب جزاء الأمير على أفعاله، غير أنّ ذلك لم يكن ليحدث قطّ بحضور عمّته التي كانت تنتشله من بين المخالب المرعبة لعبيد النار. فترتمي على قدمَي الملك وتقسم بالله أنّ شعرة لن تُمسّ من رأس ابن شقيقها قبل أن تُجلد هي. دائمًا ما كان الملك الراحل يرضى في نهاية المطاف، فينجو الفتى المشاكس من العقاب. ومنذ ذلك الحين حفظ سيدي لتلك المرأة حنانًا لا حدود له.

لذلك كان على أحدنا أن يقوم بدور طائر الشؤم وينعى إلى الملك وفاة عمّته. لكنّني صمّمتُ على ألّا أقوم بهذا الدور. حين صُوّبت كلّ النظرات نحوي، هززتُ رأسي علامة الرفض القاطع، ثمّ قلت محتجًّا:

– لماذا توكَل إليّ كلّ المهامّ القذرة؟

– لأنّك الأفضل، قال عالِم الأعشاب.

وافق الوزراء والقادة العسكريّون ورجال الحاشية على هذا الرأي بالإجماع. لكنّ قراري لم يتغيّر. فحسرت الغطاء عن رأسي وأخرجت سبحتي من جيبي متمتمًا:

– اطلبوا ذلك من القزم بودا. إنّه المفضّل لدى سيدي.

– إنّه لا يجيد سوى النباح، قال بلال معترضًا.

– نحن لا نطلب منه أن يغنّي. لينقل الخبر للملك وحسب!

– سنتحمّل كلّنا المسؤوليّة، قال عالِم الأعشاب.

– أطلبوا ذلك من الطبيب! إنّه متضلّع من شؤون الأموات!

لكنّ دعابتي لم تضحك أحدًا. كان الحدث جللًا، وعلينا بأيّ ثمن أن نفعل شيئًا. حين رأى الموسيقيّ ساهر أنّ الوضع يسوء، فاجأنا بالتطوّع للقيام بالأمر، وقال بصوت هادئ:

– سأتكفّل بإطلاعه على الأمر، الموت جزء من الحياة.

ظهرت على فم القائد موحا تكشيرة صغيرة، فيما تبادل الآخرون نظرات الحذر، محاولين تقدير عواقب هذه الخطوة.

– محال! صحت به. سيفترسك حيًّا!

– عليك بإنقاذه، قال القزم.

– لا أخشى شيئًا، أجاب ساهر وهو يقف.

لم يسمح لي حبّي لهذا الرجل أن أتركه وقودًا للنيران بدون أن أتدخّل. الواقع أنّ أحدًا لم يكن بوسعه حلّ هذه المسألة بدون إضرار غيري. نهضت مدفوعًا بطيبة قلبي لمواجهة الحظّ السيّئ، وسرت بخطوات بطيئة نحو الأتون المشتعل. أفسح لي الحارسان الطريق. طرقت الباب بهدوء فارتفعت من الداخل زمجرة مفترس غاضب. فتحت الباب ومددتُ رأسي متردّدًا بين ثنيات الستائر المخمليّة القرمزيّة اللون.

– أغرب عن وجهي!، صاح الملك.

كان سيدي متجهّمًا، وقد تمدّد على سريره متّكئًا على عدد من الوسائد، وشدّ جبينه بعصبة.

– إذا سمحت لي يا صاحب الجلالة...

– لا أسمح لك!

– بأن أقول لك فقط...

– ارحل من هنا!، صاح بغضب.

– مولاي، أنا أغبى إنسان في الأرض!

– أغرب من وجهي يا جحش! لستُ في مزاج...

– مولاي، أنا أقلّ من جحش حتّى!

– يا حرّاس!

ظهر العملاقان.

قبل أن تأمر بجلدي مئة سوط كما أستحقّ، دعني أؤكّد لك أنّ الجحش الواقف أمامك لو تزوّج أمس عمّتك العجوز، لكان اليوم مليونيرًا!!

– ما بها عمّتي؟

– رحمها الله يا مولاي. لالة ياقوت فارقتنا هذه الليلة، قبيل صلاة الفجر.

هبّ الملك من سريره، وارتدى ملابسه على عجل، واهتمّ بكلّ شيء.

هكذا كان بوسعي معالجة الأوضاع الصعبة بكلّ سهولة في فترة سطوع نجمي. أمّا اليوم فالأمور أكثر تعقيدًا. الزمن لا يحسّن شخصيّة الإنسان بل يغيّرها. والشيخوخة تحافظ على ما هو صالح فيه، أمّا ما هو سيّئ، فهي تزيده سوءًا بلا شكّ. أنا أعرف ما أقول لأنّني درست عن كثب شخصيّة سيّدي العجوز.

ولكن في الوقت الراهن عليّ أن أقوم بشيء ما لأنّ وضع الملك الصحّيّ يتدهور. لا جدوى من البقاء مكتوف اليدين. ولم يسعفني تفكيري في معرفة كيفيّة ترطيب الأجواء. كان هناك حلّ، لكنّني حاولت غضّ النظر عنه لشدّة ما كان يثير امتعاضي، وهو اللجوء إلى الأميرة صوفيا. قيامي بهذه الخطوة يعني تنازلًا من قبلي، لكنّ هذا ليس وقتًا للكبرياء. الصغيرة كانت الوحيدة القادرة على إخراجنا من الطريق المسدود الذي بلغناه، كلّنا كنّا نعرف ذلك. بكلمات مقتضبة فاتحت القائد موحا بالأمر، فاضطرب بؤبؤا عينيه شأنه عادة حالما تعجبه فكرة ما. وفي الحال اتّجه إلى مقرّ الأمراء الكائن في الجناح الجنوبيّ للقصر، ليعود بعد نصف ساعة ترافقه الأميرة الوقحة. لدى اجتيازها قاعة الانتظار، توقّفت برهةً لتتبادل حديثًا خافتًا مع الدكتور مورا. كانت الفتاة المشاكسة ذات الضفائر الشقراء الملفوفة فوق رأسها على هيئة تاج، ترتدي فستانًا أبيض أنيقًا تذيّله أهداب مطرّزة. ثمّ استأنفت طريقها بلا مبالاة، ولم تتكلّف حتّى الاستجابة لانحناءاتنا، بل اكتفت برمينا بنظرة احتقار،

نحن الهواة العاجزين عن إتمام المهمّة التي كنّا نتقاضى من أجلها أجورًا مرتفعة. مهما لعنتها في سرّي، الحقيقة أنّها كانت ملاكًا حقيقيًّا نزل من السماء، تشعّ ذكاءً وإشراقًا، وتتّجه كفراشة مرفرفة إلى غرفة سيدي. كانت الأوامر تقضي بتركها تدخل بدون استئذان، ففتح لها الحارسان الباب على مصراعيه. أطلقت صرخة عصفور، أتبعتها بصرخة أقوى استجاب لها الملك بصوت مرح. وسمعتها تجري نحو السرير المقبّب حيث يرقد جدّها الذي يعاني آلامًا مبرّحة في صدره. ثمّ أُغلق الباب. دنا منّي القائد موحا، والصارم جدًّا عادة، فضمّني إليه وعانقني بحرارة. وأثنى على فكرتي العبقريّة، لائمًا نفسه على أنّه لم يفطن إلى الأمر قبل وقت طويل. ففي النهاية عاد سيدي إلى الحياة، وهذا هو المهمّ. دبّت الحياة مجدّدًا في قاعة الانتظار، واستفاقت العقول، وعاد لاعبو الورق إلى التشاجر، وتصاعد الدخان من مبخرة عالِم الأعشاب، واستعادت موسيقى ساهر نغماتها المرحة. وحين رأى الدكتور مورا القزم يرقص كالمجنون، عاد إليه مزاجه الحسن واستوى في جلسته. تحقّق الخلاص فعلًا حين رأينا الملك خارج غرفته، يمسك حفيدته بيدها ويتّجه إلى الحديقة، فيما دوّى هتاف العبيد: «يعيش الملك!» ومن شدّة فرحتي شاركتهم الهتاف حتّى ظننتُ صوتي قد علا على صوتهم.

5

دخول القصر الملكيّ كدخول طائفة جديدة، أي أنّ الانتساب يكون كاملًا ومطلقًا ولا عودة عنه. حين يصبح المرء تابعًا لقصر، يصبح الرجوع إلى الوراء مستحيلًا. وإلّا... فالجزاء هو الركوع أو الموت. إنّه ميثاق يوقّعه المرء مع الشيطان، حيث يجب التخلّي عن كلّ ما هو خارج هذه المؤسّسة الإلهيّة، ويصبح من غير المسموح الخروج على هذا الرابط المؤبّد وغير المشروط. يصير المرء جزءًا من الديكور تمامًا كالأثاث، وأشجار الحديقة، والعبيد الساكنين في ذلك المكان. ومع ذلك، عشت ولا أزال أعيش خارج القصر حياة خاصة بي وإن كانت مبتورة وهزيلة.

لم أرَ زوجتي تطعن في السنّ، ولا رأيت أولادي يكبرون. ومع ذلك فلستُ زوجًا سيّئًا، ولا أبًا غير جدير بالأبوّة. بل أنا مجرّد فرد تافه مرغم على السير، مقيّد النظر، في عالم لم أختره. حين يركب المرء قطار النخبة المذهّب، والذي لا يغادره إلّا في محطّات قصيرة ونادرة، يرى صور الحياة تمرّ أمامه كمتفرّج يجلس بعيدًا عنها، بدون أيّ إدراك للواقع الذي يصبح غريبًا عنه. ولكنّني، وخلافًا للمظاهر، لم أتخلَّ عن عقلي. لعلّي كباقي أفراد الحاشية، استسلمت لخمول الرفاهية، ومغريات السلطة، ومسالكها المحاطة بالنجوم،

إلّا أنّ ذلك لم يمنعني قطّ من أن أحكم بتجرّد على نفسي. ومع أنّ المعنى الوحيد لحياتي تمثّل في رغبتي بإرضاء مولاي، إلّا أنّ حبّي لعائلتي لم يتغيّر، وكان حبًّا حقيقيًّا ورقيقًا برغم الجراح الكثيرة التي أثخنته. وخلال كلّ سنوات عزلتي السعيدة، لم أقطع الخيط الدقيق الذي يربطني بقبيلتي. ولم يكن ذلك سهلًا، فقد حاربت بلا هوادة، وتحايلت ما استطعت، ومثّلت دور البهلوان، مراهنًا على نوعيّة العلاقة لا على كمّيّة اللقاءات المستحيلة. لا أحد يجهل أنّ وقت الفنّانين هو ملك الجميع تقريبًا، أمّا أنا فوقتي كان ملكًا حصريًّا لصاحب الجلالة. وحين يكون سيدي في مزاج هادئ، يرمي لي فتاتًا من الوقت أتلقّفه كالمتسوّل، وأحتفظ به بين يديّ المضطربتين، فأحوّل الفتات إلى نثرات من الذهب الثمين أقدمّها بتواضع إلى عائلتي. في عالم الأضواء البرّاقة الذي انخرطت فيه، تعلّمت قيمة الوقت، وندرته، وأهمّيّته. في المدينة لا يعي الناس كنوز الوقت التي يبدّدونها. التسكّع طوال اليوم على رصيف مقهى، والتفرّج على الآخرين يروحون ويجيئون في أشغالهم أمر يصعب على أصدقائي الجدد أن يفهموه. ومع ذلك لم يشكّل الأمر صدمة بالنسبة إليّ في الماضي حين كنت وصديقي ابن إبراهيم نقضي النهار كلّه في الساحة العامّة متسكّعَين، فأسافر معه على متن قصائده السحريّة، التي تراوده كأحلام يقظة وهو ينظر إلى الوجوه اللطيفة والأرداف البارزة لبعض الغلمان الذين كانوا يشعلون النار في عروقه، وفي عروقي أحيانًا.

في أحد الأيّام، وبين أغنيتين ألقاهما ساهر في قاعة الانتظار بحضور سيدي، قال لي:

– الساعات لا تمرّ على الأغنياء كما تمرّ على الفقراء.

كنت أشعر بحنان خاصّ نحو هذا الرجل، لكنّني لم أكن أوافق دائمًا على أفكاره:

– الوقت ينقضي بوتيرة واحدة للجميع! إنّها مسألة حساب محض.

– نعم ولا، قال ساهر باسمًا.

– برأيي المتواضع، أضفت، انقضاء الوقت هو الأمر الأكثر ديمقراطيّة في الكون... والأكثر عدالة. فالفقراء والأغنياء يشيخون بوتيرة واحدة.

كان ساهر يقدّر صحبتي ولا يحاول أن يناقض رأيي أبدًا. فأنقذه عالِم الأعشاب قائلًا له:

– نوّرنا بأنوارك!

أمسك ساهر بعوده الذي لم يكن يفارقه قطّ، وعزف عليه بعض الألحان الخفيفة، وكأنّما لمساعدته على التفكير. ثمّ قال:

– ساعات الإنسان الثريّ تجري وكأنّها في سباق دائم، كما هي محكومة بالعجلة والتوتّر. ولشدّة ما يشعر بالضغط، فهي تمرّ كالشهب في ليلة ظلماء.

ثمّ وضع أذنه على صندوق عوده وبدأ يدوزن أوتاره، تاركًا لنا الوقت لنهضم فكرته ونفكّر في مذاقها.

– وساعات الفقير؟، سأله بلال الذي استمرّ بالتلاعب بأوراقه بدون أن يرفع رأسه.

– آه! لقد عشتُ تلك الساعات في حياة أخرى. ساعات الفقير موصولة بالعدم، ولصيقة بخمول قاتل، وكسل لا شفاء منه، لذلك فهي لا تنقضي إلّا بصعوبة بالغة...

وجدنا في كلامه شيئًا من المنطق. أمّا القزم بودا الذي لا يدع شيئًا من الحديث يفوته، فقد قال:

– ربّما لهذا السبب لا يخشى الفقراء الموت بالقدر الذي نخشاه نحن.

– أين الصلة بينهم وبيننا؟، سأله عالِم الأعشاب متعجّبًا.

– لأنّهم لا يملكون شيئًا يخسرونه!، أجاب هازئًا، فبحسب مطربنا العالم، وقت الفقراء مرتبط بالعدم. لذلك فالفقراء حين يموتون، يجدون أنفسهم في ديارهم، إذا جاز لي التعبير...

– أوضِح كلامك!، قال عالِم الأعشاب محتجًّا.

– الأمر بسيط، أيّة أهمّيّة للعبور من عدم إلى عدم؟ لذلك فالانتقال من عالم إلى آخر مجرّد أمر شكليّ.

لو لم يبتسم الملك، لما تلقّى أيّ منّا هذه الملاحظة المغلوطة بارتياح. لكنّ سيدي وجد أنّها الفكرة الأفضل في السهرة، لذلك أجمعنا على اعتبارها سديدة وثاقبة.

في القصر، كان يحدث أحيانًا أن أسرق وقتًا من مولاي.

الموهبة شيء، أمّا استغلالها فشيء آخر. لعلّ بيع نفسي بقيمتها الحقيقيّة كان أولويّة بالنسبة إليّ في بداية مهنتي، لكنّه لم يعد كذلك مع تقدّمي في العمر. ومع هذا ظلّت ثقافتي تورّطني في المتاعب. لم يكن تعييني في وظيفة «مأمور نوم الملك» – التي رغب فيها الكثيرون – هديّة، ولا حتّى تسمية لوظيفة تخلو من الجهد. فقدرتي على سرد الروايات بطريقة أفضل من رفاقي سبّبت لي المتاعب الكثيرة، وأجّجت غيرة لا يمكن تخيّلها. كان غيظ أفراد الحاشية يحتدم لمعرفتهم بأنّني في غرفة واحدة مع الملك، فينسبون إليّ أغرب المكائد، ويلصقون بي اتّهامات شتّى،

كعزل رجل لا صلة لي به على الإطلاق، أو طرد موظّف مجهول، أو الموت المؤسف لأحد القادة العسكريّين على الطريق، أو سقوط حاكم إحدى أبعد مقاطعات الصحراء... كنت محطّ لوم الجميع. فبطريقة أو بأخرى خيّم ظلّي على كلّ القرارات الصارمة والعنيفة التي اتّخذها الملك. وكانت تلك القرارات متعدّدة. نُسب إليّ شرف عظيم وهو أنّني أؤجّج دائمًا غضب سيدي. كان ذلك ظلمًا كبيرًا. ومهما سعيت إلى المصالحة وتجنّب الصراعات، فقد كانت الصراعات تلاحقني وتقضّ مضجعي. فلم أجد خيارًا سوى مواجهة أخصامي. والأسوأ أنّ منطق الحرب كان يدفع بي أحيانًا إلى القيام بضربات استباقيّة، حسبما يقول مولاي.

كان قربي من صاحب الجلالة يمنحني غرورًا لا يمكنني إخفاؤه، ونوعًا من السلطة كنت أرى قوّتها في نظرة خصومي الملتمعة. الواقع أنّني كنت أملك السلاح الأكثر إثارة للخوف في نظام الملكيّة المطلقة، أي أذن الملك. فالثناء على حسنات شخص ما أو القضاء عليه رهن بتلميح بسيط أدرجه في جملة عابرة. وملاحظة واحدة كانت تكفي لزرع الشكّ في ذهن سيدي. الوقت في وسط كهذا ضيّق جدًّا ولا أحد يكلّف نفسه التدقيق في تفاصيل الأمور. القرار يُتّخذ بسرعة، وغير مهمّ ما إذا تدحرج رأس أو وظيفة في جزء من الثانية. مَن يملك أُذن الملك يساوِ الملك قوّة. لذلك فهذا القرب الميمون من جلالته هو ما صنع منّي ما أنا عليه اليوم. والله يعلم أيّ جهد بذلته على نفسي لئلّا أسيء استعمال هذه الحظوة.

حين يدخل الملك غرفته في المساء، كنت أنتظر إشارة السيّد بريك رئيس الخدم قبل أن أنسلّ سرًّا إلى تلك الغرفة. لم يكن سيدي يحبّ الضوء كثيرًا، فعاش في عتمة دائمة، في نصف ظلمة

لا يميّز فيها المرء شيئًا. برغم معرفتي التامّة بأمكنة المقاعد، والمناضد الصغيرة، والمصابيح، والطاولة الواطئة، وبقيّة الأثاث، إلّا أنّني كنت أتعثّر دائمًا. وكان يحدث أحيانًا أن أبالغ في سقطتي، فأنبطح على السجّادة الصوفيّة السميكة لأُضحك الملك، كمقدّمة للسهرة، قبل أن أجلس على وسادة عند طرف سريره. وفي الحال أشغل نفسي بالإعداد لنوم مولاي. وما إن يضع كتابه على الطاولة المحاذية لسريره، حتّى أذكر دعابة ما قبل البدء بسرد القصص التي ينتظرها. ولمّا كان يفضّل القصص الجديدة فقد كانت المهمّة صعبة. حتّى حين أطلق العنان لمخيّلتي، وأستقي الروايات من خزّان قراءاتي الهائل، كنت أعاني عجزًا في تجديدها باستمرار. لذلك كنت أتظاهر برواية قصص جديدة هي ليست في الواقع سوى قصص قديمة مجدَّدة ومزيّنة بالكثير من الزخارف والبلاغة. كنت أفعل ذلك بكثير من الدقّة والمهارة حتّى أكاد أخدع نفسي. كنت أختار حديثي بعناية وحذر كبيرين، فلا تخرج من فمي كلمة، أو عبارة، أو حتّى رنّة واحدة إلّا وغايتها تحسين الإطار الروائيّ للقصّة التي أسردها، والتي أعمل على تعزيزها وتهذيبها وإسنادها بألف نادرة ونادرة. لم أكن أخفض صوتي إلّا مع سماعي غطيط سيدي كهمس سعيد أنصت إليه بفرح، ويؤكّد لي أنّ أحلام مولاي تحلّ بهدوء محلّ رواياتي. ولكنّ سيدي كان ينام أحيانًا بدون أن يصدر عنه أيّ صوت، فأقع في الحيرة وأجهل متى عليّ الكفّ عن رواية قصّتي. كان في جعبتي بعض الحيل للنجاة، فأذكر في روايتي أمرًا غريبًا، أو عبارة تقيم الموتى من قبورهم، كأن أقول مثلًا إنّ هارون الرشيد استخدم المصعد الكهربائيّ في زمن العبّاسيّين، فإذا لم تبدر عن الملك أيّة ردّة فعل، أنهض بهدوء وأنتعل بابوجي وأغادر

الغرفة بصمت. لكن في تلك الحيل مجازفات، وقد تتأتّى عنها نتائج عكسيّة، كتلك المرّة حين ذكرت أنّ أبا نوّاس ركب طائرة هليكوبتر في القرن الثامن ليزور عشيقه في الصحراء، فانفجر سيدي ضاحكًا بقوّة لم يجد بعدها سبيلًا إلى النوم طوال الليل. كانت تأخذه أحيانًا قهقهات أقوى منه في الوقت الذي أحاول فيه شيئًا فشيئًا إغراءه بالنوم. لذا كانت تلك الطريقة كسيف ذي حدّين، فإمّا ينجح الأمر وأتمكّن من العودة إلى منزلي بهدوء، أو يفشل وأدفع ثمنًا باهظًا حتّى شروق الشمس.

أملك، ككلّ أفراد الحاشية، منزلًا فخمًا في حيّ راقٍ من العاصمة، يبعد عن القصر مسافة عشر دقائق. كان ذلك المنزل هديّة فاخرة قدّمها إليّ صاحب الجلالة. لا أنوي إثارة صدمة أحد لكنّني أريد التوضيح أنّ ذلك المنزل قُدِّم إليّ مفروشًا بأثاث ثمين، ومشتملًا على مرأب فيه سيّارة ألمانيّة من الطراز الأوّل، وغرفة نوم شغلتها بعد أسبوع من إقامتي فيه زوجة لا تخلو من السحر، اقترحها الديوان الملكيّ. كانت مينا شابّة من حيّ التواركة أنجبت لي ثلاثة أبناء جميلي الطلعة. لم أكن بحاجة إلى وقت طويل لأقع في إغراء تلك السمراء ذات العينين البندقيّتين، والتي تحبّ الطعام الفاخر والشعر. وهكذا فإنّ تبنّي القصر لشخص ما عادة ما يرافقه عرض من الصعب رفضه. كان هذا التنظيم الذي يفرضه الديوان الملكيّ يخضع لاعتبارات أمنيّة، لأنّنا كنّا ندخل يوميًّا إلى المقرّ الخاصّ بإقامة الملك. لم تكن مينا مُخبرة بالمعنى الحرفيّ للكلمة، ولكنّها عملت في القصر بوصفها سكرتيرة. لذلك لم يكن بوسع أفراد الحاشية الاعتراض على الزوجات اللواتي يُخصَّصن لهم. لكنّي لا أتذكّر أنّ أيًّا من رفاقي قد اعترض على مَن اختيرت له. بل أنّ

عديدين منهم، وكانوا متزوّجين، لم يتردّدوا في الزواج مرّة ثانية بالشابّة التي فرضها عليهم الديوان الملكيّ. وبما أنّ كلمة الملك لا تُردّ، فإنّ هذا التوجيه السعيد قد أفرح أكثر من رجل. لكنّني وبكلّ صدق لم أكن مغبونًا في هذا الزواج. فأنا أنتمي إلى جيل كان تدبير الزيجات فيه هو القاعدة. كما أنّ تلك الزيجات كانت أنجح من زيجات اليوم مهما قيل في الأمر. بعد اختراع التصوير الفوتوغرافيّ العجيب، لم يعد اكتشاف العروس ليلة الزفاف يشكّل مفاجأة. وخلافًا لآبائنا، كنّا نعرف تمامًا أين نذهب. في ذلك العصر، كان الزوج والزوجة يلتقيان، ويتعلّمان كيف يتعارفان، ويعيشان، ويتحابّان، ويبنيان، ويشيخان، ويموتان معًا. هذا رأيي برغم اعتراض أولادي الذين يجدونني قديم الطراز. ومع ذلك فالزيجات الحاليّة فقدت ألق الماضي وسحره.

لم يكن تنظيم زفاف كلّ هذا العدد من الرجال أمرًا سهلًا بالنسبة إلى موظّفي الديوان الملكيّ. وقد مثّلت حالة بودا مشكلة حقيقيّة لأنّهم لم يجدوا وبرغم جهودهم المضنية قزمة في حيّ التواركة. كانت المرأة التي خُصِّصت له تتجاوزه، بأقلّ تقدير، بنصف قامة شخص بالغ ذي رأس بشعر قصير وخشن. وإذا كان هو قد قبل الزواج بامرأة عملاقة، بكلّ سرور، فإنّ المرأة لم تكن مسرورة بنصيبها بدون شكّ. فما خلا شكل القزم الخارجيّ القبيح، كان ذا شخصيّة كريهة وسوء نيّة يزيدان النفور منه.

عالِم الأعشاب موسى كان أقلّ مَن استفادوا من هذا الترتيب. وإذا كان قد نال حظوة الزواج بفتاة من العائلة المالكة، وهي نسيبة بعيدة لسيدي، فإنّ تلك الفتاة كانت سمينة جدًّا. لم تكن قبيحة، بل ذات ملامح متناسقة مرسومة في وجه محبّب. كما أنّ

شخصيّتها السعيدة واللاهية كانت تُنسي المرء بدانتها بسرعة. أمّا الجاذبيّة الجنسيّة، فقد كان على موسى البحث عنها في مكان آخر. فالأميرة البدينة لم تكن تهوى الجنس، كما أنّ لحمها الذي يندلق عن كلّ جزء من جسدها شكّل صفعة حقيقيّة للجماليّات، وقضى على كلّ رغبة في اللهو...

نجا من هذا الأمر بلال العرّاف، بدون منازع. فبعدما تنبّأ بالزوجة المخصّصة له، قرّر الحدّ من الأضرار وجاهر بأنّه مثليّ جنسيًّا. وتقبّل الإهانات والسخرية، التي تنمّ عن ذوق سيّئ، والصفات المذلّة، وكلّ شي، وصمد. وكان حالما يصبح موضوعًا للهزء يلتجئ إلى أوراقه كما يلتجئ ساهر إلى ألحانه. ولا يعود يشعر بأيّ شيء حوله، كما لا يعود أيّ من سهام بودا المسمومة يطوله. وهكذا نجا بلال من المرأة التي قُدّر له أن يراها في نبوءته. وإذا أخذنا بالاعتبار الانتقادات التي تحمّلها ليتجنّب الزواج بها، فلا شكّ في أنّها لم تكن ملكة جمال. ومع ذلك، فإنّ سيدي الواسع الحلم، أمر بأن يُفصل لخدمة العرّاف سائق يشبه كبار الرياضيّين الإغريق.

ساهر كان الاستثناء الوحيد في مجموعتنا. حين رأى الزيجات تجري الواحدة بعد الأخرى، خشي أن يُرغَم على ذلك بدوره، فيما هو متيّم بحبّ زهرة، الحسناء السوداء العينين، وجارته في الزقاق حيث أمضى طفولته. وفي إحدى الأمسيّات، وبعد أن أهدى إلينا أغنية حبّ استثنائيّة للمطرب الكبير محمّد عبد الوهاب، تروي قصّة حبّ ميئوس منها رقّ لها قلب الملك، أفاد ساهر من المناسبة ليثير الموضوع:

– مولاي، أحبّ امرأة حبًّا شبيهًا بالحبّ الذي وصفه الشاعر في هذه الأغنية.

– ومن هي هذه المختارة، سأله الملك، التي تجعل فنّانًا مستعدًّا للتضحية بحياته من أجلها؟

– اسمها زهرة يا مولاي، وهي مخطوبة لي منذ كنت في سنّ المراهقة، وتنتظرني.

وإذ صمت الملك مفكّرًا لبرهة، عقّب ساهر قائلًا:

– وأنا بكلّ تواضع أطلب بركتكم يا مولاي. أرغب في الزواج بها.

فتدخّل القزم بودا قائلًا:

– أليست هذه إهانة لبنات التواركة؟! أجمل فتيات المملكة الأفريقيّات على أبوابنا. هل يكون موسيقيّ القصر عنصريًّا بعض الشيء؟

حين تلعثم صديقي في الردّ، تدخّلت رغمًا عني:

– ساهر ليس ضدّ الفروق العرقيّة! نحن في هذا البلد فخورون بتنوّعنا. ساهر عنصريّ؟ ما هذا الضلال! والدليل أنّه يكنّ لك كلّ العاطفة يا بودا، برغم أنّك قزم.

حين رأى الملك الوضع يتدهور، حسم الأمر ومنح الموسيقيّ بركته للزواج فأسكت مثير الفتن الجهنّمية، وبحركة من يده أشار إلى رئيس الخدم بأن يتكفّل بالحادثة السعيدة.

والطبيب، هل ستسألونني عنه؟ بما أنّه أقام وزوجته وأبناءه في القصر منذ فترة بعيدة، فقد كان من سوء حظّه أنّه لم يحظَ بأيّ عرض زواج! وأعتقد بأنّه نادم على ذلك!

6

العقوبة القصوى التي يقاسيها أفراد الحاشية هي أن يروا أنفسهم يخسرون كرامتهم الشخصية، أي أن يُحرموا من أغلى ما يملكون إنسانيًّا، ولو أنّ ذلك الشيء، نظريًّا، ليس ممّا يحمله المرء معه عند دخوله القصر. نحن ملزمون بأن نترك عند الباب كبرياءنا، وعزّة نفسنا، وكلّ ما نفتخر به، كما يترك المرء بابوجًا قديمًا قد يوسّخ رخام باحات القصر. ومع ذلك، فإنّ الرجال يجدون صعوبة كبرى في التخلّي عن احترام الذات، مهما أرادوا ذلك.

آه! فقدان الحظوة. لا أحد يمكنه فهم حقيقة هذا التعبير إلّا الذين خضعوا لطاغية مستبدّ. وفي محيط سيدي لم ينجُ أحد على الإطلاق من عذابات هذا السمّ. وقد يكون عزل أحد المقرّبين أخفّ وقعًا من تعليق عمله ودوره لمدّة غير محدّدة، أي لأمسيّة، أو أسبوع، أو شهر، أو سنة... أو العمر كلّه. أسوأ العقوبات هو ترك الشكّ ينهش القلب والأحشاء. الأمر أشبه بسنّ منخورة لا تُعالج، ولا تُقتلع، وتظلّ تقضّ مضجع الإنسان حتّى تثير جنونه. وهكذا فإنّ المسكين الذي يفقد حظوته، ويجد نفسه لا داخل حلقة الملك تمامًا ولا خارجها نهائيًّا، يتعرّض إلى عمليّة إعدام مكتومة: أوّلًا من قِبل الملك، الآمر المباشر بالقِصاص، وأيضًا من قِبل زملائه، أي

أصدقائه وشركائه المفترضين، ليتبيّن أنّهم ليسوا في الحقيقة سوى زمرة من الأشخاص الدنيئين، يجلسون متشبّثين بمقاعدهم بكلّ قوّة، ومسرورين بأنّهم ليسوا مكان الضحيّة التي يتبارون في صلبها، وذمّها، والسعي إلى إبعادها إلى خارج الحلقة الذهبيّة. الويل لمن تزلّ به القدم، ففي محيط الملك لا مكان للشفقة! ويشعر فاقد الحظوة بفراغ لا يوصف، ووحدة لا تطاق، وخسارة لهويّته لأنّه فجأة لا يعود يمثّل شيئًا لا لنفسه ولا لأحد. ويسقط في هاوية العدم سقطة طويلة لا نهاية لها، وعبثًا يحاول البحث عن يد تنتشله. لكنّ الانتظار المثقَل بالاحتقار، وغطرسة الرجال الذين فقدوا ذاكرتهم، يطول ويطول، ويجعل من الوقت عدوًّا رهيبًا يجب قتاله. نعم... لكن كيف؟ وبأيّة أسلحة؟ فتلك التي يملكها فاقد الحظوة فارغة من الذخيرة، ولا تساوي أكثر ممّا تساويه مفرقعات بلّلها الماء. سلاحه الوحيد حقد لا يجدي نفعًا، وحزن ثقيل يغالب الاجترار العقيم! كيف يقاتل المرء نظرة غضب، أو تلميحًا قاتلًا، أو همسًا يتوقّف حالما يمرّ؟ ماذا يقول؟ ماذا يفعل بوجه الشفقة، ولو جدّية، أو حين يحسّ وهو راكع بيد مُتعطّفة تربّت على ظهره...

آه! فقدان الحظوة. يا للتعبير اللئيم. يمكنني الحديث عنه لأنّني عرفت زواياه المظلمة، هناك في قاع النسيان، في ذلك المكان المعزول حيث لا نلتقي أحدًا. نذهب إلى هناك، كلٌّ بدوره، بدون أن يجد كتف صديق يسند رأسه إليها باكيًا، أو عزاء صامتًا. في ذلك المكان، لا يبكي المرء، ولا يئنّ، بل يكتفي بأن يطوف في ظلمات العزلة على غير هدى، جاهلًا متى، وكيف، وبأيّة حال سيكون حين يأتي الخلاص أخيرًا كشعلة أمل تظهر من العدم. ولكن في الانتظار، يبقى المرء منحنيًا، يعدّ الساعات حيث الصمت يلي الصمت،

وحيث ليالي الأرق التي يجافيها النوم... نوم متعجرف، عَصيّ، ينظر باستخفاف إلى الساهر المتعب، بعينين بلّوريّتين صافيتين يلتمع فيهما انعكاس العذابات المتعدّدة والمضنية. فيبقى المرء في ذلك المكان مستسلمًا، وعاجزًا، وواهنًا، ومتلاشيًا، ووحيدًا، وحيدًا جدًّا. سأخبركم لاحقًا عن سقوطي إلى ذلك المطهر المخيف، والذي لا يزال مجرّد تذكُّره يثير قشعريرتي، حتّى بعد خمسة وعشرين عامًا.

ذات يوم وقع أحد كبار الوزراء، وأتحفّظ عن ذكر اسمه رفقًا به، فريسة غضب سيدي الشديد. أثارت تلك القصّة الغريبة لغطًا واسعًا في أروقة القصر، ودارت على ألسنة الجميع، من الجنود إلى قادة الألوية، ومن الحرّاس العاديّين إلى رئيس الخدم، ومن العبيد التواركة إلى العسكريّين المخضرمين. أمّا أنا فيمكنني أن أرويها بتفاصيلها لأنّني كنت شاهد عيان عليها. استنزل ذلك الوزير الغبيّ على نفسه غضب الملك الشديد ذات يوم كان فيه هذا الأخير متعكّر المزاج جدًّا. فقد صمّم على أن يرفع إلى صاحب الجلالة ملفًّا غير مكتمل، بدون أن يستشير قبل ذلك أحدًا. ولو أنّه انتبه للقائد موحا الذي وقف عند مدخل الصالون، رافعًا سبابته المعقوفة كذيل عقرب مخيفة جاهزة لتلسع مَن يقترب، لكان بكلّ تأكيد قد أنقذ مؤخّرته الضخمة. وكما يخطئ بعض المخضرمين الذين يقتنعون بأنّ ذكاءهم ومهارتهم وخبرتهم تجعلهم بمنأى عن العقاب، ظنّ صديقنا نفسه لا يُمسّ، واثقًا من أنّ الموهبة وحدها هي كلّ ما يلزم لحسن سير المملكة. كان ذلك خطأ فادحًا في أرض الحكم المطلق! فالمصلحة العامّة لا قيمة لها حين يتعكّر مزاج الملك، وأرق بسيط يعانيه هذا الأخير قد يؤدّي بالبلاد إلى شلل يدوم أشهرًا، من دون أن يستطيع أحد أن يحرّك ساكنًا. من المسلّمات

هنا أنّه لا يوجد أحد في بلاط الملك لا يمكن استبداله. وما إن تراود شخصًا جسورًا أحلام العظمة ويخال نفسه من أعمدة الهيكل، حتّى يغرق في وحول لا تخطر بباله، تشدّه مجسّات أخطبوط خفيّ. إنّ رفع الرأس عاليًا أمر فيه بعض المخاطر في محيط الملك، لذلك فإنّ إبقاء العنق مرنًا، على طريقة السلاحف، قد يكون أكثر أمانًا. وفي تلك الأمسيّة الربيعيّة الجميلة، كان قدر صديقنا الوزير أن يعاني العقاب الملكيّ المؤلم.

كنّا نتناول الغداء حين دخل الوزير الجسور القاعة الكبرى بخطوات حازمة، وكأنّه آتٍ للإعلان عن وقوع زلزال في شمال البلاد، أو فيضان في محيط العاصمة، أو اندلاع حرب مع جارتنا الشرقيّة. ساد الصمت وهو يقترب من سيدي. ثمّ مال فوق كتفه وهمس في أذنه شيئًا ما، ليضع بعد ذلك ملفًّا أزرق على الطاولة، قريبًا من الهاتف. كانت جرأته والثقة التي يتصرّف بها توحيان بأنّ ما يجري أمامنا هو قضيّة من قضايا الدولة، وأنّه يجب اتّخاذ قرارات عاجلة بدون هدر دقيقة واحدة. حملقنا في سيدي، وخلنا أنّه سيثب عن مقعده ويستدعي وزراءه ويمضي حالًا إلى مكتبه لإدارة الأزمة. لكنّه بدلًا من ذلك راح يحملق في السقف مفكّرًا. كنت أدرك معنى ذلك تمامًا، حين يخلو وجه سيدي من أيّ تعبير، وتتجمّد عيناه في صمت فريد من نوعه، ويتوقّف العالم عن الدوران، ويحبس أفراد الحاشية أنفاسهم، كما كنت أعرف هذا الصمت الخادع، وهذا الهدوء الطريف الذي يسبق العواصف العاتية. التفت الملك نحو حرّاسه، وقال بصوت كاد يكون رقيقًا لولا أنّ الحقد تقطّر منه: «أبعدوا هذا الحيوان من وجهي! لا أريد أن أراه بعد اليوم!».

كان بين الملك وحرّاسه المقرّبين رموز متّفق عليها. وبحسب نبرة صوته وقسوة نظرته، يملك الضبّاط خيارًا بين أمرين: إمّا أن يمسكوا بالشخص المسكين من غطاء رأس جلابيّته، ويجرّوه محنيًّا عبر الأروقة والحدائق وصولًا إلى باب القصر، ليرموه بعنف بعد ذلك على الأسفلت فيُلحقوا به أشدّ أنواع الإذلال، وإمّا أن يواكبوه وهم يحيطونه بأجسادهم الضخمة نحو المخرج بطريقة لا تخلو من بعض التحضّر، ولكنّها تبقى مع ذلك مسيئة. لكنّ الوزير العارف بعادات القصر سبقهم إلى المخرج...

وهكذا بدأت تلك القصّة المدهشة التي لا تشبه أيّة قصّة أخرى مرّت على القصر. سبق الوزير الحرّاس الذين تقدّموا نحوه بشيء من التردّد والارتباك، لأنّه يبقى شخصيّة بارزة من شخصيّات الدولة، وغادر القاعة متّجهًا نحو الإسطبلات الملكيّة يتبعه جيش من الحرّاس. برغم أنّ أوامرهم قضت بطرد الوزير، إلّا أنّهم وجدوا صعوبة في التصرّف بخشونة مع أحد أقرب معاوني سيدي. لم يفهم رئيس مروّضي الجياد شيئًا من تلك الجلبة التي علت، وظنّ أنّ الملك يقوم بزيارة مفاجئة إلى الإسطبل. فسارع إلى فتح البوّابة على مصراعيها، وصفر ليجمع رجاله على عجل. اتّجه الوزير إلى حجرة حصان خالية بانتظار تنظيفها، ودخلها ثمّ جلس أرضًا مسندًا ظهره إلى كومة قشّ. نظر الحرّاس المذهولون إليه وقد اتّسخت جلابيته البيضاء. وفجأة صاح بالمروِّض العجوز قائلًا:

– رأى سيدي أنّني حيوان. ليكن. إذًا فمكاني بين الحيوانات. سآكل وأعيش وأنام مع الحيوانات، ولن أغادر هذا المكان، أنا الحيوان، إلّا بأمر من سيدي!

وقف الحرّاس يتبادلون نظرات الحَيرة، ويجهلون كيف يتصرّفون أمام هذا الوضع غير المسبوق. كان من الواضح أنّ الوزير فقد صوابه. اقترب بعض الأعيان لمساعدة «الحيوان»، لكنّهم لاحظوا أنّ عقله قد تعطّل. ومع ذلك حاولوا التوجُّه بكلام العقل إلى صديقهم، لكنّ هذا الأخير رفض سماع أيّ شيء. بل تفاقمت نوبة جنونه، فأخذ بيده روث الأحصنة وفرك به رأسه وهو يقول بصوت مرتفع:

– الحيوانات تعيش مع الحيوانات، وهذا طبيعيّ جدًّا! قال سيدي إنّني حيوان أي أنّ مكاني وسط الحيوانات. سيدي لا يخطئ أبدًا في طبيعة الكائنات. أعرف ذلك حقّ المعرفة، فقد كان لي شرف خدمته نصف حياتي...

حاول الحرّاس أن يُخرجوه من ذلك المكان، لكنّ المفتي الذي صودف مروره من هناك عارضهم الرأي، واقترح استدعاء الدكتور مورا. لم يتأخّر الطبيب في الظهور ببطنه الممتلئ ومظهره الطيّب، حاملًا حقيبته السوداء. بدأ بتفريق العمّال الفضوليّين الذين تجمّعوا عند مدخل الإسطبل. وطلب من مروّض الخيول زجاجة ماء بارد ودخل إلى المريض، فحيّاه وجلس القرفصاء بقربه، وبدأ معه حديثًا وكأنّه في صالون عاديّ. وبعد هنيهة، نجح في إقناع الوزير بابتلاع حبّة مهدّئة، تكفي حصانًا. بعد ذلك، غادر الإسطبل بشكل طبيعيّ جدًّا.

قرّر أحد الضبّاط أن يروي القصّة للملك فوجدها هذا الأخير مضحكة جدًّا، وتسلّى بها مع رفاقه الذين انفجروا مقهقهين... واسترسلوا في إطلاق النكات الجارحة والتي تفتقر إلى الذوق. قال القزم إنّ هناك احتمالًا بوجود صلة ما بين الوزير وفحل سيدي، مذكّرًا بالرواية التي احتلّت عناوين الأخبار مؤخّرًا، حيث وُجد شابّ

بالقرب من حصانه جثّة هامدة بعدما اختنق بسائل الحصان المنويّ... الذي تدفّق بكمّيّة صاعقة أغرقت معدة الرجل المسكين ورئتيه... كان ذلك الرجل فلّاحًا طيّبًا لم يستطع مقاومة عضو الحيوان الهائل الحجم. وأضاف موسى عالِم الأعشاب قائلًا:

– قصص الحبّ نهايتها سيّئة دائمًا.

أمّا بلال الذي ما كان يكفّ أبدًا عن التبصير بأوراقه، فقد أضاف ملاحظة جديرة بالاهتمام. وروى أنّه والوزير شاهدا يومًا حصانًا عربيًّا أصيلًا ينكح فرسًا بنّيّة اللون، فقال له الأخير إنّ في نكاح الجياد قدرًا كبيرًا من الإباحيّة والإثارة. كما ذكر بلال أنّ عينَي الوزير التمعتا على نحو غريب، وأضاف أنّ تلك التعليقات الجميلة والرقيقة لوصف نكاح الجياد قد أثارت فيه الارتعاش. فاستنتج بلال حدوث مغامرة ما بين الوزير والفرس البنّيّة اللون، التي لا تخلو مؤخّرتها المرتفعة من الشهوانيّة. كما أنّ أوراقه لم تنفِ ذلك قطّ. استرسل سيدي في الضحك، فزاد المهرّجون من هذيانهم وحكاياتهم الحمقاء التي بلغت الذروة. كانوا يلتفتون إليّ بين الحين والآخر، منتظرين منّي أن ألقي بدوري بعض الدعابات الساخرة، ليُحسم نهائيًّا المصير المأساويّ-الكوميديّ الذي لاقاه الوزير. لكنّني لزمت الصمت، لأنّني لم أعتد قطّ أن أهزأ من الرجال وهم في الحضيض.

بلغ الاستهتار المرعب بالملك أن أمر بترك الوزير يقضي ليلته في الإسطبل. ولكنّه أمر له بطعام وغطاء.

بالحديث عن الكرامة، هذا هو المستوى الذي كان بعض زملائي مستعدّين للنزول إليه ليحافظوا على «مكانتهم المرموقة». ومع مرور السنوات التي أمضيتها بقرب سيدي، لم يعد يفاجئني القدر الذي يصل إليه البشر في تحمّل الإهانة والعار.

7

ليس من أمر طبيعيّ أكثر من أن يحقّق أحد العرّافين المجد عبر تفسيره لحلم ما. لكنّ بلال سلك للوصول إلى القصر – والحقيقة أنّه اقتيد إليه مرغمًا – دروب حلم شاقّة. كان ذلك الحلم كابوسًا رأى فيه سيدي نفسه يحمل وليّ العهد بين ذراعيه، ويتدحرج من قمّة جبل صخريّ وعر إلى وادٍ من الرمال المتحرّكة. في ذلك الكابوس المرعب، كان الملك يحمل طفله الباكي، باذلًا محاولات يائسة لإنقاذه، ولكن عبثًا، فقد كان يغوص في الوحل عاجزًا. أثار ذلك الكابوس ارتباكًا شديدًا في ذهن سيدي. ما عاد يغمض عينيه مرّة حتّى يرى عرشه في توازن هشّ، يتأرجح على قضبان عالية ومترنّحة، وعلى وشك السقوط. فيفيق من نومه مذعورًا، وقلبه يخفق بقوّة ووجهه يتصبّب عرقًا. أثار خوفه من السقوط أرقًا شديدًا وزاد من سوء مزاجه المتعكّر أساسًا. قدّم إليه محيطه تفسيرات متعدّدة ومتضاربة وكلّ منها يلغي الآخر. ومرّ بقاعة الانتظار القريبة من غرفة الملك عدّة معلّمين روحانيّين، وبصّارين مخضرمين، وحتّى بعض أشهر المشعوذين. رأى بعضهم في الحلم أنّ غزو الصحراء مجدّدًا سيكون هديّة للأمير لتثبيت دعائم حكمه في المستقبل، فيما فسّره آخرون على أنّه انصهار للملك بأرض أجداده المكلّلين

بالأمجاد. لكنّ سيدي الذي كان يرفض التملّق رفضًا قاطعًا، لم يجد في أيٍّ من تلك التفسيرات ما يقنعه.

حين سُدّت الأبواب في وجهنا، وبدأ الاستسلام ينال منّا، بقي لدينا ملجأ أخير. كانت الملكة الأمّ تملك موهبة حلّ العقد المستعصية. ولمّا لم يكن متاحًا لنا أن نلتقي بها في أروقة القصر، تكفّل القائد موحا بالذهاب إلى تلك السيّدة الجليلة التي نكنّ لها إعجابًا صادقًا. كنّا نحبّ رؤيتها بالقفطان الحريريّ تأتي في خلال الأعياد لتهنئة صاحب الجلالة. وكنت أتأثّر كثيرًا بمنظر سيدي منحنيًا، يكاد يركع، ويقبّل يد والدته ظاهرًا وباطنًا. وغالبًا ما يردّد: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات. ومَن يقبّل قدَمي أمّه كلّ صباح، فقد يحظى بفرصة الدخول إلى الجنّة...».

برغم أنّ الملكة لم تكن أمّي، وأنا آسف لذلك، أعترف بأنّني وجدت الجنّة تحت قدميها ذات يوم. حقًّا. كان ذلك منذ وقت بعيد، عشيّة العيد الكبير، والذي لم يكن في الحقيقة يستهويني كثيرًا لشدّة ما كان يتّصف بالتعب وسفك الدماء، كما كان على الأخصّ باهظ الكلفة لأنّ قبيلتي بكاملها اعتادت أن تأتي من الجنوب لتقيم عند بابي، في انتظار أن يُحسن إليها رفيق الملك الثريّ بخراف مسكينة تُضحّي بها في العيد. لكنني في ذلك العام لم أملك فلسًا واحدًا لأشتري قطيع الخرفان الذي تطالبني به عائلتي. قضيت الليل كلّه مهمومًا، جاهلًا كيف أواجه المشكلة. عائلات بكاملها جلست القرفصاء منتظرة على جدار حديقة منزلي – كمَن ينتظر منّي سداد دين – الحيوانات التي تعوّدت أن أهديها إيّاها. لم يكن واردًا أن أتوارى عن الأنظار، فذلك سيُفسد عليهم عيدهم، كما سيقضي على مصداقيّتي كفرد منهم قُدّر له أن ينجو من أثقال

الفقر ويحلّق عاليًا في السماء. لذلك كان مستحيلًا أن أهرب. ومن جهة أخرى منعني كبريائي من أن أطلب سلفة من سيدي. شعرت بالقلق والثقة في الوقت عينه، مقتنعًا بأنّ مَن في حالتي، أي السعيدي الحظّ، غالبًا ما كانوا ينجون في اللحظة الأخيرة على أيدي كائنات تأتيهم من السماء. وقد أتاني الخلاص على يد الملكة الأمّ شخصيًّا. والواقع أنّ تلك السيّدة النبيلة أنقذتني من الورطة في الصباح التالي. حين وصلت إلى القصر رأيتها في إحدى زوايا الحديقة، تروي مساكب ملأى بزهور رائعة تخاطب الحواسّ بألوانها الزاهية وأشكالها الساحرة. تلك اللوحة ذكّرتني على الفور بالشاعر ابن إبراهيم، فألقيت عليها قصيدة له تمتدح «الوردة التي تسقي وردة أخرى»... وتمنحها «همس النسيم وقطرات الندى» وما إلى ذلك من التعابير الصباحيّة الرخيمة.

ابتسمت الملكة وقالت لي:

– فاجأتني يا محمّد. لا أملك ما أقدّمه إليك في المقابل.

– الملكة تملك دائمًا ما تقدّمه إلى خادمها يا لالة.

– ماذا تريد؟ وشاحي؟

– أحد بابوجيك المذهّبين يا لالة.

– لماذا تريد بابوجًا واحدًا؟ سألتني وهي تخلع كلا البابوجين من قدميها. خذ الاثنين.

– بابوج واحد يكفيني. لو أخذت الاثنين، فقد تفكّر زوجتي في انتعالهما. لكنّ المقام الذي تزوره الملائكة لا يجوز توسيخه.

ابتسمت الملكة محتارة. على الفور، حمل إليها أحد الحرّاس بابوجين آخرين.

مساء ذلك اليوم، كنت أشرح لأفراد الحاشية في قاعة الانتظار المأزق الذي وجدت نفسي فيه، أي حالي المادّيّة المزرية وجيش الفلّاحين الذي يحاصر منزلي. وطلبت دعمهم لأنّني كنت أنوي بيع أحد بابوجي الملكة الأمّ بالمزاد العلنيّ بحضور سيدي. وجد زملائي الفكرة ظريفة ومبتكرة، فوعدوني بالمشاركة حتّى النهاية. لكنّنا لم نطلع القزم بودا على حقيقة الأمر، لأنّه كان قادرًا على إفشاء السرّ وإفساد فرحة ما ننوي القيام به. وهكذا، وقبل وقت العشاء بقليل، أخرجت من غطاء الرأس في جلابيّتي البابوج النادر ووضعته على الطاولة، وقلت على طريقة البائعين المتجوّلين:

– أيّها السادة، ما كنت لأتخلّى عن هذا الكنز أبدًا لولا أنّ فقر أفراد قبيلتي أرغمني على ذلك عشيّة العيد. قرّرت والألم يحزّ في نفسي أن أبيع لمن يدفع السعر الأعلى هديّة ثمينة تكرّمت عليّ بها لالة أمّ سيدي، وهي كناية عن بابوج مطرّز بخيوط ذهبيّة، ونُقشت عليه الحروف الأولى من اسمها الكريم.

حين أعلنت البدء بالمزاد امتلأت القاعة بحماسة باردة قليلًا، فالسعر الذي طرحته كان مرتفعًا جدًّا لدرجة أنّ الملك الذي جلس يتابعنا من بعيد، شعر بأنّ في الأمر خداعًا، فعاد حالًا إلى قراءة كتابه. أعدت تذكير أفراد الحاشية بشعار مولاي، وأعدت صياغته بكلمات تتلاءم والمناسبة: «إذا كانت الجنّة تحت أقدام الأمّهات، فهذا يعني أنّه تحت أحذيتهنّ! هذا البابوج الجميل بخيوطه المطرّزة هو أولى صور الجنّة!»، ابتسم الملك غير أنّه لم يحرّك ساكنًا.

حين بدأ المزاد، غادر القزم بودا القاعة، فيما راح الموسيقيّ ساهر والدكتور مورا يزايدان بحماسة. انضمّ أحد القادة العسكريّين إلى ما يجري، فأثار اهتمام بعض الضيوف الذين شاركوا بدورهم.

اكتشفت أنّني أمتلك موهبة البائعين في المزادات العلنيّة، فرحت أفضح بخل هذا، وأثني على ثروة ذاك، وأثير بأفضل ما أجده من العبارات الرغبة بالتملّك والفوز لدى الرجال الذين أخذوا بالمزايدة على نحو غير عقلانيّ. فجأة، ترك المفتي الكبير سجّادة الصلاة، ليشارك بجنون فعرض خمسين ألف درهم. أثار ذلك المبلغ الخياليّ ذهول الجميع. لحسن الحظّ أنّ قهقهة سيدي قطعت هذا الارتباك، حين أعلن بحركة من يده قراره بدفع ثمن البابوج. لم نعلم ما الذي دها المفتي الهادئ الطباع عادة، فغمرته النشوة حين رمى بذلك السعر بما يشبه العبثيّة. لكن يُسجّل لعرضه أنّه دفع بالملك إلى سداد السعر المطروح. حين استرجع الملك البابوج، التفت إليّ وقال:

– أعرف حيلك يا محمّد! إيّاك أن تظنّ نفسك خدعتني. هذه هديّة منّي إلى قبيلتك التي يغطّي القمل رؤوس أفرادها. أنقل لهم تمنّياتي في العيد!

انحنيت بتواضع، سعيدًا بأنّ الوردة التي كانت تسقي وردة أخرى عادت عليّ بثروة كافية لتجعل منّي مربّي حيوانات.

ولكن، لنعد إلى بلال ودخوله قصر الملك. حين نجح القائد موحا في ترتيب لقاء بين أفراد الحاشية والملكة، أحالتهم هذه الأخيرة فورًا إلى إحدى سيّدات قصرها، وتدعى تامو، وهي ساحرة متخصّصة في فكّ رموز لغة الروح. سرى الاعتقاد بأنّ تلك الكائنة ذات العينين المخيفتين تعلّمت من شركائها الشياطين تفسير الأحلام الأشدّ تعقيدًا. ولكن حين علمت بأنّ الحلم المطلوب تفسيره هو حلم الملك، لم تشأ المجازفة. وأوصتنا باستشارة معلّمها، وهو رجل يدعى بلال، يعيش حياة الزهد في مغارة نائية

بالقرب من قرية في جبال الأطلس الكبير. كان بلال حكيمًا صوفيًّا، معروفًا بقدرته على قراءة علامات الغيب والرموز الخفيّة من أيّ نوع... كما كان معلّمًا بدون منازع، رفعه أبناء قريته إلى مرتبة النسّاك، وبنوا له في حياته ضريحًا تعلوه قبّة لاستقبال جثمانه بعد موته.

أخذت الملكة الأمّ المسألة على محمل الجدّ، وأرسلت جنودًا لإحضار العرّاف على وجه السرعة. بعد مسير أيّام عبر الدروب الجبليّة المتعرّجة والوعرة، عثر الجنود أخيرًا على القرية. تابعوا صعودهم عدّة مئات من الأمتار ووصلوا إلى المغارة، ليروا أمامها عالم أعشاب يقوم بحرق بعض النباتات وهو يتلو الصلوات. قادهم موسى، الخادم المخلص للعرّاف بلال، إلى سيّده الذي كان يقرأ الورق محاطًا بعشر شموع متفاوتة الطول.

– كنت في انتظاركم أيّها السادة.

– بأمر من الملكة...

– أمتعتي وأمتعة مساعدي موضّبة. نحن مستعدّان للّحاق بكم أيّها السادة.

تبادل الجنود نظرات خائفة.

وهكذا وجد الرجلان نفسيهما بعد أيّام في القصر، في انتظار أن يستقبلهما الملك.

أخرج العرّاف بلال أوراقه، وفعل يومذاك ما سيفعله لثلاثين عامًا مقبلة. تمامًا مثل عالِم الأعشاب موسى الذي لم يوفّر جهدًا طوال الفترة عينها لسدّ أنوفنا برائحة مبخرته الكريهة. أتذكّر يوم استقبال بلال للمرّة الأولى في مكتب سيدي، وكأنّه بالأمس. كان يُفترض بالمقابلة أن تدوم ربع ساعة، غير أنّها استغرقت فترة قبل الظهر

بكاملها. انفرد الملك بالعرّاف كصديق قديم، من دون أن يتسرّب من حديثهما شيء. لم يدرِ أحد قطّ بما دار بين الرجلين. غير أنّ أمرًا واحدًا كان أكيدًا وهو أنّ سيدي استعاد في الصباح التالي حماسته ومزاجه الصافي، ومنذ ذلك الحين لم يغادر بلال القصر قطّ. وقد وضع شرطًا واحدًا لبقائه، وهو ألّا ينفصل عن عالِم الأعشاب، الأمر الذي قبله سيدي بسرور.

8

كان أبي يقول: «في السماء نيزك وظيفته السقوط على رأس أوّل كائن أرضيّ يحطّ من قدر نفسه علنًا.» لم يكن يردّد ذلك لإثارة الضحك كعادته أحيانًا، ولا من باب التواضع المزيّف. بل كان يؤكّد أنّ ذلك النيزك لم يسقط على أحد قطّ، وأنّه لا يزال معلّقًا في الفلك منذ فجر الأزمنة، باحثًا عن ذاك الكائن النادر. وفي تفسير ذلك، أنّ السيرة الذاتيّة لا تتضمّن سوى جزء من الحقيقة، وهو الجزء الأقرب إلى الإطراء. ولولا ذلك لكنتُ الآن في عداد الأموات بسبب سقوط ذلك النيزك المخيف والصبور على رأسي.

ناورت كثيرًا في كتابة سيرتي لكي أتجنّب الحديث عن جرح يحزّ في نفسي منذ أمد بعيد، وهو يتعلّق بابني البكر الذي خطر بباله القضاء في صباح واحد على مجهود حياة بكاملها. لم يكن ممكنًا لشخص ملعون كهذا إلّا أن ينتهي به المطاف في ظلمة سجن بجنوب البلاد، بُني على أبعد مسافة ممكنة من البشر، هناك في الصحراء، في جحر محفور وسط المجهول، في مكان يليق بالضلال الذي أقحم نفسه فيه، ليقضي ما تبقّى من حياته بين أشباح أمثاله من الرجال. جعلتني هذه المأساة أبدو في نظر الجميع حفّارًا لقبر ولدي، وأصبحت وحشًا، ونذلًا، وخائنًا، وظُلمت وحوكمتُ وأُدنت

مسبقًا. كيف يمكنني أن أروي قصّتي الشخصيّة بدون أن أذكر قصّة ابني، لحمي ودمي، الذي كاد يجرفني معه في سقوطه؟ كيف أصف عودتي كلّ يوم إلى المنزل حيث تنتظرني امرأة في حالة حداد دائم، وأمّ حُرمت حبّها الأوّل، أي بكر أبنائها؟ ظلّ الأمر مقبولًا حين كان هابيل معتقلًا في سجن عاديّ، ولم تخلُ العلاقة المتوتّرة بيننا من اللياقة والاحترام. لم تفوّت زوجتي خميسًا واحدًا، وهو يوم الزيارات، لتذهب إليه حاملة سلّة من الطعام والملابس النظيفة والسجائر البنيّة اللون. وكانت برغم حزنها تعود في المساء مطمئنّة وهادئة. حتّى إنّها أحيانًا كانت تمزح فتقول إنّ السجن يسمح لها برؤية ابنها أكثر ممّا كانت تراه وهو حرّ! طبعًا لم تكن تراه كما تريد، فهي لا تستطيع أن تعانقه، لكنّها اطمأنّت إلى معرفة أنّه بصحّة جيّدة، ولكونها تكلّمه برغم جلبة قاعة الزيارات حيث يعلو جداران شبكيّان يفصلان بين العائلات والمعتقلين، يسير بينهما حارس باستمرار مصغيًا بانتباه إلى كلّ ما يُقال. ولكن ذات يوم، توقّف كلّ شيء، واختفى هابيل من الوجود. لم يكن بوسع أيٍّ كان أن يقدّم إليها أدنى تفسير. ولولا ولديّ المراهقين اللذين ينتظرانها في المنزل، لفقدت مينا عقلها. ومع ذلك، لم تتوقّف عن زيارة السجن المركزيّ كلّ خميس في تمام العاشرة، حاملة معها سلّة الطعام والملابس النظيفة والسجائر. وفي الأعياد كانت تضيف علبة ملأى بالحلويات. لم ينفع طرد الحرّاس لها، كانت تعود دائمًا، وتجلس على مقعد أمام البوّابة الحديديّة الضخمة طوال الصباح. ماذا كانت تنتظر؟ لا أعلم. ربّما حمامة زاجلة تحطّ في حضنها حاملة إليها أخبارًا عن ابنها. كان المتسوّلون يتحلّقون حولها، مدركين أنّها وفي نهاية المطاف ستوزّع عليهم الطعام والملابس النظيفة والسجائر

بالتساوي. مرّت سنة كاملة قبل أن تتوقّف أخيرًا عن هذه الزيارات المؤلمة وغير المجدية. لم يعد بوسعها أن تتحمّل اللازمة التي يردّدها عليها الحرّاس: «بناء على أمر من الملك، نُقل المتمرّدون إلى ثكنة عسكريّة...»، «لا يا سيّدتي، المكان سرّيّ». أمر الملك هذا كان يشمل محيط الملك، أي أنا ورفاقي، المطّلعين حُكمًا على الأسرار. في تلك الحقبة انهار زواجنا. ذات مساء، كنّا راقدين على سريرنا، فمالت مينا نحوي وقالت في أذني: «متى تنوي أن تعيد إليّ ابني؟»، بقيت عاجزًا عن الكلام، اكتفيت بالنظر إليها بدون أن أصدر صوتًا واحدًا. كان لطلبها وقع الصفعات اللئيمة التي اعتاد أبي أن يوجّهها إليّ في طفولتي بسبب أخطاء لم أرتكبها. بمَ يمكنني أن أجيبها؟ لم تكن أيّة ذريعة لتبدو مقبولة أمام هذا الاتّهام المبرم. نهضت مينا وغادرت الغرفة، وكان ذلك آخر يوم تشاطرني فيه سريري. لم تكن من النساء اللواتي ينزلن إلى الشارع فيلطمن وجوههنّ ويندبن اختفاء أبنائهنّ. كما لم تكن تبوح بما يخالجها أمام صديقاتها اللواتي يزرنها لشرب الشاي بعد الظهر. لكنّ الخادمتين كانتا تسمعانها أحيانًا تكلّم نفسها بين تنهيدتين في المطبخ، قائلة: «اشتقت إلى ابني»، أو «لا بدّ من أنّه يرتجف بردًا في مثل هذا الطقس»، أو «هو يحبّ هذا الشيء، أو ذاك...»، وخلال الأعوام العشرين التي تلت، ظلّت مينا تؤمن بأنّ معجزة ستحدث، وبأنّ ابنها الذي اختفى سيعود للظهور ذات صباح، ويقرع الباب مجدّدًا بإلحاح كما لو أنّه يقرع طبلة. كانت في الماضي وحين تسمع تلك الدقّات المألوفة، تنتفض وترتّب شعرها وتغادر المطبخ على عجل لتفتح له الباب. وهناك لا تسارع إلى معانقته كما قد تفعل أيّة أمّ، بل تتريّث لتتأمّل بإعجاب العملاق الذي يسدّ بجسده فتحة الباب.

كان ولدها تحفة حقيقيّة، وينبوع فخرها الذي لا ينضب، حفنة من الطين عرفت كيف تصنع منها تمثالًا رخاميًّا حيًّا، محبًّا، مشرقًا، واقفًا بجلال أمامها. كانت تتأمّل بعينَي فنّانة ابنها الضابط القويّ البنية، والمتميّز بأناقته، والوسيم جدًّا، والزاهي ببزّته العسكريّة. لكنّ هابيل لم يكن يقاوم إغراء حمل أمّه، فيشدّها إلى صدره بقوّة – كانت بنيته ضخمة بعكسها تمامًا – ويبقيان معًا متعانقين كحبيبين طال غيابهما، بدون أن يتبادلا كلمة واحدة، بالكاد يتنفّسان. ثمّ يضعها أرضًا برفق وينحني ليقبّل ظاهر يدها وكفّها، مواصلًا تلك العادة الرقيقة التي دأب عليها منذ الطفولة. تترك له يدها بكلّ سرور، فلا يتخلّى عنها. ويذهبان معًا إلى الصالون. كان هابيل يعرف أنّه لن ينجو من الاستجواب التقليديّ حول حياته بعيدًا عن المنزل. فمينا تريد أن تعرف كلّ شيء حول الثكنة، والرحلات إلى الصحراء حيث خطر الحرب قائم دائمًا، وموعد العرض العسكريّ المقبل الذي ستدعو إليه صديقاتها للمجيء والتصفيق لبطلها.

الواقع أنّ فضولًا واحدًا كان يساورها بشدّة: ماذا عن حياته العاطفيّة؟ كانت تغيّر مجرى الحديث في هذا الاتّجاه كما لو أنها تفعل صدفةً، فيدرك هابيل حقيقة نواياها، ويبتسم. هل تعجبه فتاة ما في مكان ما؟ هل يحبّ إحداهنّ؟ يمكنه أن يبوح لها، فهي قادرة على إخفاء السرّ. سرّه سيكون دفينًا معها، لكن يجب أن يخبرها كل شيء، بدون أن يغفل تفصيلًا واحدًا. «ما اسمها؟ أخبرني! صفها لي! من أيّة منطقة هي؟»، وحين لا يجيب أو يكتفي بإجابة غامضة، تتابع حديثها بنبرة غمّ، كتتمّة منطقيّة لهوسها: خمسة وعشرون عامًا، يا إلهي! في عمره كان لها ثلاثة أبناء. عليه التفكير في الزواج. وإذا سمح لها ستهتمّ بالأمر بكلّ سرور. فبنات العائلات

الراقية الجميلات كثيرات في المنطقة، وسيتنافسن على زوج مميّز مثله. ليس على هابيل سوى أن يشير بإصبعه الصغير فتُحسم القضيّة. ثمّ تتابع بحزن قائلة إنّه لا يحقّ له أن يحرم والدته العجوز رؤية أحفادها، فهي تتقدّم في السنّ ولا تريد أن تترك هذا العالم بدون أن ترى ذرّيّة له. أيّة هديّة يستطيع تقديمها لوالدته أفضل من كنّة لطيفة وساحرة لتكون رفيقة لها وسندًا؟... العسكريّون دائمو التنقّل، لذلك فإنّ الحماة والكنّة تشكّلان فريقًا قويًّا وناجحًا على كلّ الصعد...

كانت أيّام المأذونيّة معدودة على أصابع اليد الواحدة. لكنّ مينا لا تضيّع منها دقيقة واحدة، فتنهمك في أن تعدّ لابنها العزيز أطباقه المفضّلة: طاجن القوق بالزيتون المرّ ومربّى الليمون، أو الحمام المحشوّ والملفوف بالفطائر الرقيقة، أو الكسكس بالشعير والسبع خضروات... كلّ يوم طبق مختلف، ومذاق مميّز لطعام تعدّه بحبّ. لم تكن تسمح لأحد بأن يطهو مكانها. أمّا الخادمتان اللتان يثير حماستهما حضور الضابط الشابّ، فتنهمكان بالعمل في فناء المنزل. هذه تمسح الأرض وهي تحرّك مؤخّرتها بخفّة، وتلك تكتشف أنّ أشجار البرتقال عطشة، وتسارع إلى ريّ مسكبة الزهور قبالة الصالون الكبير، وتتبادلان نظرات ماكرة وضاحكة. وأحيانًا يحمرّ وجهاهما خجلًا حين تريان هابيل عاري الصدر، وفي طرف فمه سيجارة، وبيده كتاب. لا شكّ في أنّ كلتيهما كانتا مولعتين به. ولا شكّ في أنّهما لم تكونا الوحيدتين! برغم علمها بحيلهما، كانت مينا تتظاهر بأنّها لا ترى شيئًا، بل تكتفي بالابتسام في سرّها، وتفكّر بأنّها شعرت ولا شكّ بما تشعران به من غليان وهي في مثل سنّهما. أحيانًا كانت تكلّف إحداهما بأن تحمل إليه فنجان قهوة

إلى الصالون، فتنسى الفتاتان خمولهما المعهود وتتنافسان على خدمة الفتى الوسيم. في خلال فترات إقامة هابيل القصيرة في المنزل، كان المطبخ يتحوّل إلى خليّة لا تهدأ لإعداد الحلويات التي سيحملها معه إلى الثكنة. عدد من العلب البلاستيكيّة الملأى بقرون الغزلان، وقطع الحلوى المحشوّة بالعسل واللوز، والحلويات الجافّة، وأنواع البسكويت الأخرى المفيدة لوجبة الفطور...

يمكنني اليوم أن أعبّر عن نفسي بحرّيّة، من دون أن أكون ملزمًا بالتحفّظ. غدًا أو بعد غد، سيسلم سيدي الروح وأعود للعيش قريبًا من عائلتي. قريبًا منك يا مينا. امنحيني فرصة الإصغاء إليّ لبرهة بدون أن تقاطعيني، بدون أحكام مسبقة! أودّ التفريج عن مكنونات قلبي، لا لأزيده مرارة، بل فقط لأحاول أن أعطي قصّتنا مغزى. أنا رجل مؤمن، تعرفين ذلك جيّدًا. وأقسم لك بالله العليّ العظيم إنّني لم أعرف قطّ ما إذا كان هابيل حيًّا أو ميتًا، ولا في أيّ سجن كان. إنّ الاتهامات الباطلة، والاحتقار، والكراهية التي واجهتموني كلّكم بها قد قضت عليّ. والضغط الذي تعرّضت له باستمرار عذّبني كثيرًا. لم أتذمّر يومًا، لأنّ من غير اللائق أن أقارن ألمي، مهما كان شديدًا، بألمك. كنت أعلم أنّ موقعي في رأس الهرم يخوّلني الاطّلاع على أسرار الدولة. ولكن كيف لم يفكّر أيّ منكم ولو للحظة في أنّني، وفي موقعي كوالد حاول ابنه اغتيال الملك، لم أكن أملك أيّ هامش للمناورة؟ كيف أشرح لك يا حبيبتي أنّ الهدف الوحيد من تصريحاتي الرسميّة كان إنقاذ باقي أفراد القبيلة؟ هل كنت أملك خيارًا سوى أن أنكر لحمي ودمي، علنًا، وبأعلى صوتي؟ وأن أقطع كلّ علاقة لي بالمجرم الذي حاول قتل مولاي؟ آه، سامحيني يا مينا. سامحيني لأنّني أحببتك على طريقتي الصاخبة، والخرقاء،

والمرهقة. سامحيني لأنّني جعلت من بيتنا قصرًا مصغّرًا، مثّلت فيه دور ملك صغير تحيط به حاشية من المتملّقين، والواهمين، والمستنفعين، والأشخاص المجرّدين من كلّ قيمة، والذين مع ذلك ساعدتني خفّتهم التافهة على بلوغ الشيخوخة. سامحيني لأنّني حظرت ذكر اسم ابني تحت سقف بيتي، ومنعت أيّة إشارة إلى مصيره المضطرب والغامض. أتعتقدين أنّني لم أكن ألحظ شيئًا؟ وأنّ صخب الحياة المرفّهة التي عشتها أضعف قدرتي على التمييز؟ وأنّني لم أدرك الألم الذي اعتصر ملامح وجهك الملائكيّ؟ آه يا مينا، كنت أرى عينيك الكبيرتين تغوران في محجريهما وكأنّهما تغرقان في بئر من الأحزان. كنت أرى التجاعيد تنحفر في وجهك كشطوب في كتاب لم أشأ تأليفه. لم أملك أيّ سلاح أواجه به ذلك الألم الذي كان ينهش جسدك كلّه. الغائب كان أكثر حضورًا منّا كلّنا في قلبك. كنتِ قبل كلّ وجبة طعام، تضعين حصّته جانبًا تحسّبًا لاحتمال وصوله جائعًا فجأة، كما كان يفعل في الماضي حين يعود من الثكنة جائعًا. وحينذاك تجلسين قبالته لتنظري إليه يلتهم في دقائق طبقًا أمضيت ساعات في تحضيره. حصّة الغائب تلك، كما اعتدتِ تسميتها، كانت تبلغ حجمًا غير معقول حين يأخذك الحنين، ويصبح الفراغ الذي تركه ابنك أصعب من أن يُحتمل. كان خدم المنزل يستمتعون بذلك الطعام يوميًّا لأنّ أحدًا لم يكن يأتي ليأخذه. سامحيني لأنّني أحطت نفسي بغرور وظيفتي، واستسلمت للدور الذي ظننته يدوم إلى الأبد، وهو ليس سوى لعبة يعود فيها الرجال أطفالًا، ويتشاجرون كما يفعل الأطفال، وتستبدّ بهم الغيرة والنزوات وتقلّب الأهواء والمبالغات... رجال يملكون كلّ صفات الأطفال، كلّها، ما عدا البراءة.

لا، لم أكن أريد ذكر هذه القصّة. ما فائدة نكء جرح قضيت أعوامًا في محاولة تضميده؟ ما فائدة تأجيج نار كامنة تحت جمر يخبو، وتحريك وحول الضغائن التي رقدت مع الوقت، وإثارة ذكريات القلق وترسّبات الأخطاء والالتباسات القديمة...؟ في عمرنا هذا، ما الفائدة من العودة إلى ما لا يمكن إصلاحه وكأنّنا لم نكتفِ بكلّ عذاباتنا؟ ومع ذلك، كنت أعلم أنّ من الصعب تجنّب هذه المرحلة المؤلمة من حياتنا، وأنّني سأحاسَب في أحد الأيّام على عمل لم أكن مسؤولًا عنه. قد تقولين إنّني جبان، ربّما. كان بوسعي أن أختار الخروج وإغلاق الباب خلفي – كما فعل آخرون – والنزول مجدّدًا إلى أرض الواقع وتعلّم السير من جديد مع البشر العاديّين، والتخلّي عن المجد، وانحناءات صغار القوم، وبذخ الاحتفالات الملكيّة، والغرور الشديد الذي يرافق الحياة بين النجوم، وسط الجواهر والحجارة الكريمة والأناقة، وسط عالم لا وجود للمظهر القبيح فيه. كان بوسعي أن أعود إلى مراكش، وأمتهن التعليم في مدرسة عاديّة في المدينة وأعيش معك بسعادة. ربّما. لكن كان يجب أن أُمنع منذ اليوم الأوّل من تذوّق طعم حياة السلطة والرخاء. كان أبي يقول: «الفقراء لا يعتقدون بأنّ عالمًا كهذا قد يكون موجودًا، ولا شكّ في أنّ مخيّلتهم تتوقّف عند المستوى الأوّل من هذه العربدة. وإلّا لثاروا».

ولكن حتّامَ ستتّهمينني بأنّني سرقت ابنك يا حبيبتي؟ حسنًا، لقد كان ضابطًا شابًّا. حسنًا، لقد أطاع أوامر رؤسائه. حسنًا، لم يكن يعلم أنّ القادة سيحاولون اغتيال الملك. لكنّه أيضًا لم يكن يجهل أنّ والده بين ضيوف الملك، فيما كان الجنود يطلقون النار في

كلّ اتّجاه في قصر الملك. لم أرد الاستفاضة في هذه القصّة لأنّها لا تزال تعذّبني حتّى اليوم.

9

يُقال إنّ الملائكة تمنح الذين يعانون أمراضًا مستعصية استراحة قُبيل النكسة النهائيّة، أي معجزة معلّقة على شفير الهاوية. ويُقال أيضًا إنّ الأمل يُخرج مخالبه ويتشبّث بكلّ قوّته بهذا السكون الوهميّ. أمّا أنا فلا أصدّق شيئًا من ذلك. شفاء سيدي هو النتيجة المباشرة لصلواتنا الحارّة. فقد مضت علينا أشهر ونحن نتضرّع إلى الله لكي يشفي مولانا ويخّفف من آلامه. وفي النهاية، استجاب لنا. هذا كلّ شيء.

في الصباح الباكر، أَرسَل إليّ السيّد بريك رئيس الخدم مبعوثًا على عجل، ليزفّ إليّ خبرًا مفاجئًا: «سيدي يستعدّ للذهاب للعب الغولف، ويطلب حضورك». لكن شتّان ما بين التعافي من المرض، حين لا يكاد المرء يقوى على الوقوف، وممارسة الرياضة! لو أنّ السيّد بريك كان يتمتّع بقليل من حسّ الفكاهة، لاعتقدت أنّها دعابة سيّئة، لكنّ الرجل معروف بشخصيّته الصارمة التي لا مثيل لها في المملكة بأكملها. ويبدو ذلك جليًّا في ملامح وجهه، إذ ترسم تجاعيده الكثيرة والعميقة فيه تكشيرة أبديّة، وكأنّه انتهى لتوّه من تجرّع كأس علقم. وكان عالِم الأعشاب – الرجل الطيّب بطبعه – يصف ذلك الوجه بأنّه مسوّدة نسي مؤلّفها تبييضها،

مضيفًا بأنّ السيّد بريك – مثل القزم بودا تمامًا – ينتمي إلى مجموعة لا يُستهان بها من أخطاء الخلق المثيرة للشفقة. كنت أتسلّى في قاعة الانتظار بمراقبة تعقيدات هذه اللوحة غير المنجزة عن كثب، حيث تتداخل التجاعيد مشكِّلة متاهة لا مخرج منها، كدرب مفتوح ومغلق في الوقت عينه لطالما سَحَر بلال. لا شكّ في أنّ العرّاف كان يقرأ في ملامح ذلك الوجه تاريخ البشريّة بحروبها، وفيضاناتها، وأوبئتها، ومجازرها... كانت التجاعيد تبدأ في جبهة رئيس الخدم العريضة لتزداد عمقًا بين حاجبيه فتمنحه هيئة أسد وحيد وهزيل، ثمّ تلتفّ حول عينيه لتعود وتسقط خطوطها المتشعّبة على عظم خدّيه الشبيهين بثمار التين الجافّة، وتحفر أثلامًا في مجريَي الدموع حول أنفه لتصل إلى طرفَي شفتيه فتشدّهما نزولًا، وتنتهي في تجويف يقسم ذقنه البشعة إلى فلقتين. كان هذا الوجه المجعّد يبدو كخرقة متغضّنة يسكنها الاكتئاب بصورة دائمة. أتساءل كيف استطاع سيدي أن يستبقي في خدمته رجلًا بهذه السحنة المتجهّمة. يجزم بعضهم أنّ أفراد السلالة المالكة الشديدي الاعتقاد بالخرافات، اعتادوا أن يحيطوا أنفسهم بهذا النوع من الأشخاص الدميمين للوقاية من الحسد! إذ يُقال إنّ سوء الحظّ لا يمكنه أن يصيب منزلًا فيه فاجعة من هذا النوع. الحقيقة أنّ هذا الرجل لم يكن قبيحًا بالمعنى الحرفيّ للكلمة، فملامح وجهه البيضويّ الشكل عاديّة، غير أنّ مزيجًا منفّرًا جدًّا من الحقد والشرّ كان ينضح منه. ومصادفتي إيّاه في الصباح بدت بالنسبة إليّ إشارة إلى أنّ نهارًا سيّئًا ينتظرني. أحيانًا، كنت أغيظه سرًّا، بعيدًا عن أعين أفراد الحاشية الذين ينتهزون أوّل فرصة

للانقضاض عليه. أمّا أنا فكنت أستغلّ الوقت حين نكون وحدنا بحضور الملك لكي أثير حنقه.

يومذاك رأيت سيدي مرتديًا ثياب الغولف، وخلفه السيّد بريك. نظرتُ إليه وأنا لا أصدّق عينيّ، لكنّني نجحت في إخفاء شعوري. وقبل أن ينتهي العبيد من عبارات المديح المرهقة التي وجّهوها للملك، قلت لرئيس الخدم وأنا أقبّل يد صاحب الجلالة:

– آه يا سيّد بريك، ها أنت ذا أخيرًا.

نظر إليّ بحذر، فتابعتُ أقول:

– أريد أن أسألك خدمة يا سيّد بريك.

– أنا أسمعك، أجاب بنبرة تكاد تكون باكية.

جلس الملك الذي اعتاد أسلوبي الماكر، متوقّعًا دعابة وشيكة.

– فكّرت كثيرًا قبل أن أطلب مساعدتك، لا أظنّ أنّ هناك أحدًا غيرك يستطيع إنقاذي.

– بكلّ سرور يا صديقي، ما يمكنني عمله لك؟

– نحن على معرفة منذ سنوات...

– صحيح.

– ولم أطلب منك شيئًا، صحيح؟

– تكلّم! ما الأمر؟

– لن يزعجني أن ترفض لي طلبي. خسرتُ صديقًا عزيزًا جدًّا عليّ... كان بمنزلة أخ.

– رحمة الله عليه!، قال رئيس الخدم بوجه أكثر تجعّدًا من المعتاد.

– يجب أن أذهب بعد ظهر اليوم إلى جنازته... لا أدري ماذا أقول... أريد... إن لم تجد مانعًا... أودّ أن أستعير وجهك لأذهب لتعزية

عائلته... لأنّ الله برحمته الواسعة منحك رأسًا مثاليًّا لهذا النوع من المناسبات...

لو لم يضحك الملك لقتلني رئيس الخدم. ولكنّه، وبفضل سرور سيدي الذي حماني، لم يجد مهربًا من تهنئتي بابتسامة هي أشبه بتكشيرة بشعة.

برغم أنّ سيدي استيقظ مرتاحًا، إلّا أنّ مزاجه ظلّ متقلّبًا، وعرضة لأن يسوء في أيّة لحظة. وقد نبّهتني إلى ذلك سبابة القائد موحا. لذلك أخذت حذري وأنا أجلس بجانب الملك في السيّارة الضخمة التي قرّر قيادتها بنفسه. سرنا في طريق ملعب الغولف في طبيعة شبيهة بطبيعة سويسرا. بعد غابة أشجار القيقب والأوكاليبتوس التي تحيط بالقصر، عبرنا حيّ السفارات، واجتزنا الجسر لننتهي إلى مدخل ذلك المكان الساحر الذي أحبّ أن أرافق مولاي إليه.

– الحمد لله يا مولاي.

رمقني الملك بنظرة فاحصة، مدهوشًا.

– حسنًا، ولكن ماذا دهاك؟

– لا شيء يا مولاي. أنا فقط أحمد الله. أليس هذا المشهد عجيبًا؟ ابن المدينة في سيّارة إنكليزيّة فخمة، وسائقه... هو الملك بنفسه. النّعمة تغمرنا يا سيدي!

ابتسم الملك.

– لماذا أنا يا مولاي؟

– لأنّك محظوظ، ولأنّك مبارَك من والديك. لأنّك رجل طيّب يا محمّد.

المجيء من مدينة مراكش المكتظّة، والتأمّل في هذه المساحات الخضراء المنبسطة وغير المأهولة، هو أشبه بالدخول إلى الجنّة التي لطالما حدّثونا عنها في المدرسة القرآنيّة. عشب أخضر على مدّ النظر فوق الروابي، وحول البرك، يصل حتّى الأفق، حيث البحر يعانق السماء الزرقاء. ارتفعت في ذلك المكان أعلام غريبة مثلّثة الشكل ترمز إلى عالم الأثرياء، وسيّارات صغيرة كالدمى تنقل أشخاصًا، بثياب بيضاء وسحنة مسمرّة برغم القبّعات، يرفعون اليد بالتحيّة ويبتسمون بصورة آليّة للسيّارات الصغيرة الأخرى التي تقلّ أصدقاء لهم، ينتمون إلى العالم نفسه.

ما كدنا نصل إلى صالون الشرف حتّى سارع جمع من الوزراء في اتّجاهنا لإلقاء التحيّة على الملك، مبادرين بالانحناء له من مسافة عشرة أمتار. بحركة من يده، صرفهم سيدي ومضى إلى الملعب حيث كان أحد حملة عصيّ الغولف في انتظاره. تفرّق شمل الشخصيّات «بكلّ وقار»، فذهب هذا إلى البار، وآخر إلى حوض السباحة، وثالث إلى الشرفة المطلّة على الملعب. لو أنّ هؤلاء المتملّقين رأوا سبابة القائد موحا، لتواروا عن الأنظار، ونسوا التوقيع الملكيّ الذي يفتقر إليه عدد كبير من الملفّات، والذي لا يمكن تصريف أيّ عمل بدونه. كان التأخير الذي سبّبه تدهور صحّة الملك قد شلّ أعمال المملكة. وأثار تراكم الأمور الملحّة لديهم قلقًا كبيرًا. شعرت بذلك من الاهتمام المفاجئ الذي أبدوه حيالي. فأخذوا يمتدحونني وكأنّ المديح ليس مهنتي، ويعدونني بمعسول الكلام وكأنّني لست متضلّعًا من فنّ الكلام. كانوا يعرفون قدرتي على حلّ العقد الصعبة، فتحلّقوا حولي محاولين إقناعي بتليين موقف الملك، وجعله يوقّع ملفّات مستعجلة لا تحتمل الانتظار. كان

بعضهم يرى فيّ منقذًا، وبعضهم الآخر شهيدًا مستقبليًّا. كنت أعي ذلك تمامًا. الواقع أنّه كان يجب أن أكون منقذًا وشهيدًا معًا. فمن المعروف أنّ الرسول يقوم بعمل فيه مجازفة!

في بيت الملك لا وجود للحصانة، ولا أحد بمنأى عن أشدّ العقوبات. لطالما رُفعت إليّ مطالب في الأزمات الصعبة، وغالبًا ما نجحتُ في تفادي المتاعب. ولكنّني مع ذلك، تعرّضت كالجميع إلى نصيبي من العقاب. دام ذلك عدّة أشهر، وتلك كانت الفترة الأشدّ ظلمة في حياتي كأحد رجال الحاشية، بل في حياتي كرجل. ما رويته عن فقدان الحظوة الذي عاناه رفاقي لم يكن شيئًا بالمقارنة مع سقوطي. ولسبب وجيه! فقد عوقبت بسبب خطأ ارتكبه شخص آخر، وهو ابني. نزل عليّ العقاب الشديد كالصاعقة غداة محاولة الانقلاب، حيث حام الشكّ حول مشاركتي في الجريمة. أتذكّر ذلك اليوم المشؤوم حين أخذني السيّد بريك من ذراعي، مبتعدًا بي عن بقيّة أفراد المجموعة، قادني إلى غرفة مكتبه القريبة من جناح الملك، والتي تشبه صاحبها في برودتها وغياب أيّ طابع شخصيّ عنها، يكسو أرضها وجدرانها الخشب الفاخر، وتوحي بأنّها محكمة عسكريّة. كان بيننا مكتب يليق بشخص مهووس، ليس على سطحه المصقول أيّ ورقة أو ملفّ. قال لي السيّد بريك:

هل تعرف أنّني أحبّك يا محمّد؟ لو كان عليّ أن أحتفظ بشخص واحد من بين أفراد الحاشية لما تردّدت لحظة في اختيارك. هذا أمر يصعب عليك تصديقه، أليس كذلك؟ الثرثرة ليست نقطة قوّتي، ومع ذلك فلديّ من الفكاهة أكثر ممّا تتخيّله. أنت رجل طيّب يا محمّد. عرفتُ ذلك منذ وصولك إلى هذا المنزل. وما يشغل بالك حاليًّا

سيتبدّد في نهاية المطاف، بدون أيّ شكّ. كلّنا نعرف أن لا شأن لك في هذه القضيّة. لو أنّك كنت مطّلعًا على أيّ شيء، لتمارضت وغبت عن القصر ليلة الهجوم. المنطق يقول هذا. لكنّك كنت حاضرًا في المجزرة شأننا كلّنا. وكانت حياتك في خطر، مثلنا كلّنا. سينصفك التاريخ لأنّني كنت حاضرًا حين واجهنا الموت، كلّنا. كيف أنسى تلك القاعة الصغيرة في الطابق السفليّ، حيث أحطنا سيدي، وبقينا أسرى لساعات، متراصّين، فيما أصوات الرصاص والقذائف الجهنّميّة تدوّي بلا توقّف في الطابق الأعلى؟ رأيتك ترتجف يا محمّد، مثلما رأيت الملك مرتبكًا، يكاد يكون غائبًا عن الواقع، فيما نحن نتلو آيات القرآن. وحين رأيت سيدي يفقد عزيمته ويعجز عن التفكير، قمت بواجبك لإعادته إلينا، فقلت له:

– سيّدي!

– الأسياد هم مَن يطلقون علينا النار!، أجابك.

– أودّ التعبير عن رغبتي الأخيرة قبل موتي...

– عليك أن تتوجّه إلى المتمرّدين يا محمّد! مليكك لا يستطيع شيئًا لك.

– سيصغون إليك يا مولاي! الملك مسموع الكلمة دائمًا! قبل أن يطلقوا عليّ النار، قل لهم ألّا يصوّبوا إلى رأسي المسكين، فلا ذنب له. ليفرغوا رصاصهم في بطني الضخم، فهو وحده المسؤول عمّا يجري لي! هذه المعدة التي لا تشبع أبدًا تستحقّ أن تمزّق إربًا. وهي التي قادتني إلى هذا القبو حيث أختبئ كجرذ!

أجهل ما إذا كانت ضحكة الملك عصبيّة أو لا، لكنّه قهقه ضاحكًا، فأثار ذعر الموجودين لأنّ أمرنا يكاد ينفضح. بعد فترة قصيرة، وكمن

عاد إلى صوابه، قرّر سيدي أن نغادر مخبأنا، خلافًا لرأي أحد الضبّاط... وكان في ذلك القرار نجاتنا.

نعم، لقد قمت بعملك حتّى النهاية. وأنا مقتنع تمامًا بأنّ تدخّلك أنقذنا. تحلَّ بالصبر يا محمّد، ودع العاصفة تمرّ. أنت ترغب منذ فترة في أن تتنفّس قليلًا... حان الوقت لذلك. عد إلى منزلك، واستفِد من الولدين اللذين بقيا لك. ستُستدعى مجدّدًا. أعدك بذلك. سيدي لا يزال تحت تأثير المأساة التي تعرّض لها. لكنّه في الوقت الراهن يرفض أن يراك، والواقع أنّه يرفض أن يرى أشخاصًا كثيرين...

برغم احتكاكاتنا الدائمة، كان الحزن في نظرة السيّد بريك صادقًا. وكانت كلماته المهدّئة منطقيّة مع أنّني لم أجد فيها أيّ عزاء. فقد انكسر بيني وبين سيدي شيء لا يمكن إصلاحه، وهذا الأمر كان يعذّبني كثيرًا. الشكّ... الشكّ سمّ حقيقيّ.

أتتذكّرين ذلك المساء يا مينا؟ عدتُ إلى المنزل باكرًا، خلافًا لعادتي. نظرة واحدة على وجهي المنهزم كانت كافية لتفهمي. لم تطرحي عليّ أيّ سؤال. صرفتِ الخدم وقدّمت العشاء بنفسك لتجنّب التدخّلات والضجيج. وأصررتِ على أن أشرب حسائي. لم أكن جائعًا. كنت أتصرّف كطفل ثائر ولم توبّخيني إلّا بكلمات قليلة. قلتِ لي: «تبدو متعبًا. تعال، لنصعد، سأهتمّ بك.» كنت أحبّ أن أسمع همس وعودك حين تأخذك الرغبة في تدليلي. في غرفتنا في الطابق العلويّ، حملت إليّ حوض ماء ساخن معطّر بزهر الليمون، وقليل الملوحة، وجعلتِني أغمس فيه قدميّ. أغمضت عينيّ، واستمتعتُ بنعومة أصابعك وهي تداعب جلدي، وتدلّك أصابع قدميّ، وتضغط على نقاط محدّدة وحدك تعرفينها، وكانت تريحني كثيرًا. ملامستك لباطن قدميّ يومذاك أثارت زلزالًا. أنا

سريع الإحساس بالدغدغة، وتعرفين ذلك. ما تلا ذلك من تناثر الماء كان مقصودًا طبعًا. أليس كذلك يا حبيبتي؟ لعبنا برشّ الماء، الواحد على الآخر. دافعت عن نفسي، ورددتُ هجومك بقوّة، فبلّلت قفطانك الحريريّ. أشعل الظهور المفاجئ لثدييك المنتصبين النار في داخلي. كانا كإجّاصتين نصف ناضجتين تريدان شقّ القماش الرقيق الذي التصق بهما. كنّا مبلّلين تمامًا، وضحكنا كشيطانين صغيرين قادرين على أن نبثّ الحياة في جبل من الأحزان. لأنّنا كنّا في قعر الحزن. حين مارسنا الحبّ، عضضتِني بقوّة. لم أصرخ لأنّني أحببتُ عضّاتك. أحببتُ أثر أسنانك على جلدي، وانفعالاتك، ورغبتك، وعنفك المكبوت، ومطالبك السرّيّة التملّكيّة. كنت تريدينني لك وحدك. بلا شريك، بدون عبوديّتي للقدم التي قيّدت حياتي إليها. كنت تريدينني بلا مظاهر خدّاعة، بفرح بالحياة غير قابل للبيع، بقصيدة لا تبيع نفسها كالعاهرات. الضحك للضحك، والغناء للغناء، والحبّ بدون حساب. كنت تريدينني حرًّا يا حبيبتي، كنت تحدّثينني بلغة الصمّ بعينيك البرّاقتين، ويديك الرقيقتين، وبقلب وأحشاء قادرة على إيقاظ الملائكة النائمة التي غادرتنا منذ فترة طويلة. أتتذكّرين الشرشف الأبيض الذي لففت به جسدي الرطب لتنشيفه؟ جسد متروك، متخم باللذّة، وبلا حياة. لم تعلمي أنّك أعدتِني إلى طفولتي حين كانت أمّي ترفض أن تتركني لأبي، فتلفّني في مئزر وتدخلني إلى حمّام النساء. كانت تضعني في زاوية مظلمة وتنهمك في تنظيفي. كانت عينا الطفل ابن السنوات العشر تجحظان، مأخوذتين بأطياف النساء المختلفة الأشكال حولهما، والأثداء المتهدّلة فوق الكروش، والنهود المنتصبة فوق أجساد نحيلة، والعانات الكثّة الشعر، وتلك الحليقة أو المشذّبة،

والأفواه المكتنزة التي تتطاير منها الضحكات أو الصرخات أو الشتائم، وتلك الصامتة والمزمومة، ودلاء الماء المصبوب فوق الأرداف المرتعشة، والصابون الأسود والغسول المنزلق فوق الشعر الطويل، في سواقٍ يجري فيها الوبر... كنت أترك آسفًا تلك العتمة العابقة، وعربدة الأجساد الساكنة ذلك المكان الذي تجتمع فيه التخيّلات. عند أوّل اعتراض، وأوّل نظرة عدائيّة، كانت أمّي تلفّني بمنشفة وتبعدني عن ذلك المنظر الرائع، وتحملني إلى قاعة الاستراحة حيث الماء البارد يساوي وزنه ذهبًا. يا حبيبتي، كان ممكنًا أن تكوني من نصيب أيّ رجل آخر من رجال الحاشية. طبعًا، لم يختر أحدنا الآخر، لكنّ كلينا تبنّى الآخر بسرعة. أنا أؤكّد جهارًا، غير مبالٍ بأيّ اعتراض، وأمام الله والبشر: أنت أجمل ما حدث لي في هذا العالم.

في تلك الليلة الأولى بعد فقداني الحظوة الملكيّة التقى كلّ منّا بالآخر مجدّدًا. حين رأيتِ المملكة التي بنيتُها على الريح تنهار، تمتّعتِ باللياقة لتوفّري عليّ خطابًا لم أكن مستعدًّا لسماعه. كنت بحاجة إلى الحنان، وأغرقتِني بالحنان. أحرقتِ البخور في مبخرة قبل أن تدخلي السرير، وأسندتِ جانبي إلى وسادة، ثمّ اضطجعتِ وعانقتنا، أنا والوسادة. ثمّ داعبت شعري مثلما كانت أميّ تفعل في الماضي لطرد الوحوش التي تسبّب لي الأرق. ونمتُ على قلبك الخافق، وقبضتا يديّ مشدودتان.

لنعُد إلى ملعب الغولف الذي رافقت إليه مولاي الذي بدا بأحسن حال، في صالون الشرف الواسع حيث كان الوزراء وكبار الشخصيّات الرسميّة المضطربون ينظرون إليّ كما ينظر المرء إلى طوف نجاة وسط بحر هائج. قرّرت أن ألقي بنفسي في الماء لأقنع

سيدي بالخروج من عزلته والموافقة على استقبالهم. كان ذلك مشروعًا معقّدًا لأنّ عليّ في البداية أن أعالج مزاجه الذي كان يسوء كلّما أخفق في تسديد الكرات. عدا عن أنّ سيدي غير موهوب في الغولف، فقد كان جسده منهكًا. لذلك فإنّ مقاربته في هذا الوضع كانت أمرًا ينطوي على أخطار جسيمة. سوى أنّ خبرتي الطويلة وسط الحاشية علّمتني أن أثق بغريزتي، وبالملائكة والشياطين التي كانت تلقّنني الأجوبة، وأن أرتجل، وأجرؤ، وأباغت. لذلك تبعت سيدي من بعيد، منتظرًا من السماء فكرة تنقذني. لم يكن السير في ملعب الغولف بالبابوج والجلابيّة أمرًا مريحًا. ومع ذلك تبعتُ الملك إلى مكان حيث العشب كان مختلفًا، ومجزوزًا، وفيه ثقب وقف حاملًا الكرات بجانبه مستعرضًا الراية الأرستقراطيّة. تظاهر سيدي بأنّه لم يلحظ وجودي، وركّز في تحسين رميته. الحقيقة أنّ الثقب لم يكن بعيدًا. حبست أنفاسي حين نقر الكرة التي كان واضحًا أنّها تلعب ضدّي، فقد جرت فوق منحدر وابتعدت عن هدفها مسافة عشرة أمتار. كشّر سيدي ورمى عصاه أرضًا. آنذاك بدأتُ أصفّق بشكل ظاهر وأنا أهزّ رأسي، فنظر إليّ سيدي نظرة غضب.

– أحسنت! صحتُ. أحسنت، أحسنت!

– أنت تهزأ بي، أليس كذلك؟

– أبدًا يا مولاي!

– ألا ترى أنّني أخفقتُ في رميتي؟

– لا، سيدي، أنت لم تخفق! الثقب لم يكن في مكانه! يجب أن تأمر بجلد الذين حفروه في المكان غير المناسب ليكونوا عبرة لمن اعتبر!

كانت تلك المرّة الأخيرة التي أرى فيها مولاي يقهقه ضاحكًا.

حين عدنا إلى الصالون، جلس إلى طاولة ووقف أمامه الوزراء كتلاميذ في الصفّ، وراحوا يناولونه سيلًا لا ينقطع من الملفّات، وقّعها كلّها بدون أن يتكلّف عناء قراءتها.

10

من مبادئ بلال ألّا يفصح عن أيّة مصيبة تظهر له في قراءته الغيب. وحتّى حين تكشف له أوراقه أنّ أمرًا مشؤومًا ما قد يحدث، لا يتخلّى عن برودة أعصابه، ولا يسمح لوجهه المقطّب الملامح بأن يشي بأيّ انفعال. تتجمّد عيناه، وتجاعيده، ورموشه، وشفتاه... لا شيء قد يساعد الآخرين على فكّ رموز الرسالة السرّيّة. أمّا إرغامه على الكلام فكان مستحيلًا... ومع ذلك كان بلال يقدّم وبكلّ سرور خدماته في قراءة الغيب للرفاق مقابل قطعة نقديّة رمزيّة. حتّى سيدي كان عليه الخضوع إلى هذه القاعدة، برغم أنّه لم يكن يحمل نقودًا قطّ. كنّا نتشاجر حول مَن يقدّم إليه القطعة النقديّة المطلوبة، والتي كان يعيدها إلينا مئة ضعف، وأحيانًا أكثر. وليلة أتى ساهر لاستشارته، قلقًا على صحّة والدته، رفض بلال جازمًا الردّ عليه، متذرّعًا بصداع شديد. كان ذلك أمرًا نادرًا لكنّه لم يثر تعجّب أحد. ومع ذلك كان بوسعنا، بل كان علينا أن نشكّ في أنّ ذلك الرفض لا يبشّر بالخير.

كانت «المسيرة الخضراء» حادثة على جانب كبير من الأهمّية والصخب، وقد غيّرت شخصيّة سيدي بشكل ملموس. ثمّة قرارات لا أحد يرغب في أن يُرغم على اتّخاذها. إرسال مئات آلاف

الأشخاص لغزو الصحراء، وسلاحهم الوحيد قرآن وعَلَم، مسألة كفيلة بأن تثير توتّر أيّ إنسان. لا، لا يمكن الخروج من مغامرة كهذه بدون آثار، وخصوصًا لمن كان ربّان سفينة بحّارتها زمرة من مبتوري الأطراف والكسالى. منحتني مهنتي الفرصة لكي أكون شاهدًا على حادثة تاريخيّة غيّرت البلاد تغييرًا جذريًّا. كانت الاستعدادات لعمليّة بهذا الحجم تشغل بال مولاي ليل نهار. فلم يكن يعيش، أو يفكّر، أو يتنفّس إلّا من أجل تلك المغامرة التي رأيتها تبصر النور وتنضج وتسري في أنحاء المملكة كلّها كالنار في الهشيم. فجأة تطوّع رجال ونساء عاديّون للدفاع عن عالم يكادون لا يعرفونه، ولعلّ بعضهم لم يسمع به قطّ. لكنّهم بدأوا يحلمون بحبّات الرمل، والكثبان التي نُصبت فوقها خيام البدو، والجمال، وأشعّة الشمس الحارقة...

كانت البلاد تعيش فورة وغليانًا، وصدحت الأغاني الوطنيّة على موجات الأثير وفي الشوارع والأكواخ. وملأ الفنّانون المتحمّسون الحيّز العامّ يضعون مواهبهم في خدمة الأمّة، ويوجّهون جهودهم وأنظارهم كلّها، على إيقاع التاريخ، نحو هدف وحيد هو الصحراء. باتت القضيّة أولويّة وطنيّة، وتوحّدت الصحف على صوت واحد يلهب حماسة الجماهير، ويؤجّج مشاعرها الوطنيّة لاستعادة المقاطعات الجنوبيّة. وسيطر جوّ مكهرب على المدن المزدانة بالأعلام وبصور عملاقة للملك، عُلّقت فوق مصابيح الطرق، فألقت عليها ظلالًا أوسع من ظلال الدلب في الجادّات الكبرى. بلغت حماسة الحشود ذروتها أمام الحافلات والشاحنات التي تمّت مصادرتها لهذه المناسبة. ووقفت صفوف طويلة تغمرها الفرحة العامرة بداخل محطّات الحافلات والقطارات، وفي محيطها حيث احتشدت

شاحنات قديمة ومتهالكة. وتقاطرت إلى المدينة جموع من الفلّاحين المتحمّسين، فاضت بهم الشوارع والساحات والحدائق، وكل مكان أمكنهم أن يبسطوا فيه شراشفهم الوسخة ويرقدوا في برودة ليل ترصّع النجوم سماءه. وسط تلك الحركة الدائمة، استعادت بوّابات الجنوب عزّها السابق وأمجادها، ورجع إليها زمن الازدهار حين كانت شحنات الذهب والسكّر والتوابل تمرّ عبرها. بدا أنّ الرجال والنساء نَسُوا النوم، وأكمل ضجيج الليل ضوضاء النهار. كانت الآلة المشحونة بالخطر والتي ابتكرها سيدي تستعدّ للسير. وكان حجمها يجعله يتصبّب عرقًا باردًا برغم ما كرّس له من تفكير. كان سيدي يتابع التحضيرات دقيقة بدقيقة، ويشرف على العمليّات بدقّة كبيرة، وتوقّف عن النوم والأكل، وراح يدخّن السيجار تلو السيجار، ويشرب القهوة بلا توقّف، ويتحدّث عبر الهاتف بلغات متنوّعة وكثيرة. إنّ عملًا كهذا لا يمكن أن يأتي به إلّا شخص مجنون أو عبقريّ. ولكنّ الرهان قد حُسم ويجب السير حتّى النهاية. حلّت التوقّعات المتشائمة محلّ تفاؤل الأيّام الأولى: ماذا لو أنّ جيش المستعمرين المذلول أطلق النار على الحشود...؟ لا يمكن استثناء احتمال كهذا. آنذاك سيُعدّ سيدي مسؤولًا عن مجزرة مروّعة. فالرجال والنساء الذين أتوا من كلّ أنحاء المملكة، حالما أيقنوا أنّ سلامة أراضي المملكة في خطر، سيموتون لأنّهم لبّوا نداء ملكهم!

كنّا وقبل أيّام من المظاهرة، نشرب الشاي في باحة القصر، فأطلعني سيدي على هذه الفكرة بكلمات لا تشبهه: «إذا فشلت هذه المسيرة، فما علينا إلّا أن نجمع حقائبنا ونرحل!»، أجهل إذا ما كان الملك يتوجّه بتلك الكلمات إلى خادمه أو إلى نفسه. غير مهمّ! انطلقت بي مخيّلتي إلى طرق الشمال، فرأيتني أحمل على

ظهري حقيبتي وحقيبة مولاي، هاربين من انتقام شعب غاضب. رأيتني أسير خلف سيدي حاني الرأس، بين صفّين من الرجال والنساء، يبصقون علينا ويشتموننا ويرموننا بالحجارة...

إنّ فكرة كتلك تلخّص جيّدًا الحالة الذهنيّة للملك، الذي بدأ صومه يثير لدينا قلقًا متزايدًا. مع كلّ موعد لوجبة طعام، كنّا ننتظر حدوث معجزة. لكنّنا كنّا نرى القائد موحا يخرج من جناح سيدي متجهّمًا، وهو يدفع عربة الطعام تمامًا كما أتى بها، من غير أن يلمس الملك شيئًا منها. مضت أيّام ثلاثة لم يظهر خلالها الملك. حبس نفسه في مكتبه، رافضًا رؤيتنا، مبعدًا إيّانا عمّا يقلقه، ويعذّبه، ويثير اضطرابه. لم نكن نقبض أجرًا لنكون مع الملك وقت الانشراح فقط، بل في ساعات الغمّ قبل كلّ شيء...

ساد قاعة الانتظار صمت غريب. كان بلال وكعادته يخاطب أوراقه، وعالِم الأعشاب يضع بخورًا في مبخرته الفضّيّة، وهو يتمتم بتعاويذ غريبة. كما كان بودا القزم، ولشدّة استيائه من عدم قدرته على مهاجمة أحد، يصبّ شروره على الحرّاس الذين بدوا غير متأثّرين. أمّا الدكتور مورا الغارق في كتب الطبّ، والذي كان يرى في كلّ منّا كتلة من الأنابيب، والأوردة، والشحم، واللحم، والدم، فقد كان يراقب ساهر. كان الموسيقيّ يرقد في إحدى الزوايا، مريضًا، يعاني آلامًا في ذراعه اليسرى. أمّا أنا فكنت أفكّر مليًّا في طريقة أخرج بها مولاي من عزلته. استدعتني لالة أمّ سيدي، الملكة الأمّ، فذهبتُ حالًا إلى مسكنها، في الجناح الجنوبيّ للقصر. وكانت تجمع بيني وبين تلك السيّدة الكبيرة مشاعر حنان متبادل.

– مضت أيّام ثلاثة لم يأكل الملك خلالها.

– أعرف يا لالة.

– ما فائدتك إذا لم يكن بوسعك حلّ هذه المشكلة يا محمّد؟
– لا يريد أن يرى أحدًا يا لالة.
– أنت تعرف أنّ حججك مرفوضة! أنا أنتظر معجزات من شخص له مهارتك. استيقظ يا محمّد! شغِّل رأسك.
– أبذل قصارى جهدي يا لالة.
– المسيرة التي يُعدّ لها لن تلقى النجاح إذا توقّف ملكك عن الأكل. هذا الصيام قد يُفسد كلّ شيء!
– سيدي يهدّد بمعاقبة كلّ مَن يخالف تعليماته! وهو يرفض لقاءنا.
حدّقت لالة في عينيّ اللتين حاولتا التهرّب من نظراتها.
– انظر إليّ يا محمّد. اجعل مولاك يأكل. عليهم أن يجلدوني قبل أن يمسّ أحد شعرة من رأسك!
عدت معتمدًا على حماية لالة إلى قاعة الانتظار الكئيبة حيث كان أفراد الحاشية العاجزون لا يزالون قابعين. تجنّبت النظر إلى وجه السيّد بريك المثير للاكتئاب، واقفًا عند المدخل، جامدًا كعادته، وبجانبه القائد موحا الذي لا يقلّ عنه إثارة للاكتئاب. كان هذان الرجلان يبقيان واقفين دائمًا، ويمنعان نفسيهما من الجلوس وكأنّهما يخشيان أن يضيّعا جزءًا من الثانية إذا ما استدعاهما سيدي. من بعيد، لم يكن بوسعنا التمييز بينهما: الملابس المتطابقة، والصدر المنتفخ، والمشية ذات الكبرياء، والوجه الذي يشي بالاكتئاب، والنظرات المضطربة كما لو أنّ العدوّ سيظهر من الرواق فجأة لمهاجمة الملك. كشقيقين توأمين، كان كلّ من السيد بريك والقائد موحا يفهم ما يريده الآخر بسرعة البرق. لو أنّ والدتي التقتهما في أحد أزقّة المدينة لقالت: «تدحرجت القِدر وعثرت على

غطائها!»، كنت أضحك كثيرًا حين يخرج هذا التعبير من فمها للإشارة إلى أنّ الاكتئاب يلاقي الاكتئاب، والحظّ السيّئ يقترن بالحظّ السيّئ. لذلك، كانت القِدر وغطاؤها يتعايشان بانسجام تامّ. هدفهما الوحيد، بل علّة وجودهما الوحيدة سعادة الملك.

تسمّرتُ أمام شاشة التلفزيون في قاعة الانتظار، مستسلمًا للضخّ الدعائيّ على شاشة الشبكة الوطنيّة التي تقول ما يُراد منها أن تقوله: الشعب واقف، قرآنه بيده، وعلمه باليد الأخرى، ينتظر إشارة الملك من أجل...

نهضتُ وطلبت رؤية سيدي. حاول القائد تقييم تصميمي، وسألني عمّا إذا كنت قد فكّرت مليًّا في ما أطلبه وأعي الأخطار التي أواجهها. وحين رأى تصميمي، أعلن للملك عن رغبتي في رؤيته.

رفض سيدي استقبالي وقال للقائد:

– أَعطِه ما يريد ولينصرف!

فأجبت القائد:

– أريد دقيقتين من وقت مولاي.

انتظرت نصف ساعة قبل أن يسمح لي الملك بالدخول إليه.

– أنت تبحث دائمًا عن أن تتميّز عن رفاقك، أليس كذلك؟ قال بامتعاض. ألا تفهم أنّ مزاجي لا يسمح لي بالضحك...

– لم آتِ لأضحكك يا مولاي. بطني هو ما سيكلّفني مئة جلدة، هذه المرّة أيضًا! لكنّ الأمر أقوى منّي ولا أستطيع المقاومة.

– ماذا يريد هذا البطن الضخم؟، سألني الملك.

– أطلب منذ ثلاثة أيّام طبق طاجن بلحم الجمل المجفّف، والمغمّس بالدهن المملّح، والمقليّ مع الطماطم بالفلفل، وفوقه

بيض نصف مطهوّ. لكن لا أجد في القصر كلّه روحًا فيها من الإنسانيّة لتفهم ما أعانيه. إنّهم يرفضون طلبي يا مولاي. لم أعرف لذّة هذا الطبق إلّا في هذا المكان. أحسّ بما يشبه وحام الحامل. الأمر ملحّ يا سيدي، أَنقذني!

ابتسم الملك ونادى القائد موحا:

– أحضروا طبق طاجن للفقيه. لا أريد أن يولد الطفل الذي يحمله في بطنه وعلى وجهه بقع!

ما هي إلّا عشر دقائق حتّى عاد القائد موحا بقامته النحيلة والطويلة يدفع عربة طعام. ظلّ سيدي حاملًا سمّاعة الهاتف، مقوّس الظهر، ساندًا خدّه بيده ممّا زاد في عرض تكشيرته، مجادلًا محادثيه الذين يبدو عليهم أنّهم من الشخصيّات المهمّة. حين رفع محمّد غطاء الطبق وانبعثت في الغرفة رائحة شهيّة، ضممتُ يديّ كما يفعل المسيحيّون حين يشكرون الله، سعيدًا بهذا الطعام اللذيذ الذي أهمّ بالتهامه. غمست قطعة خبز ساخن في صفار البيض، والتقطت بها قطعة لحم مجفّف ومملّح، ثمّ صحتُ:

– تبًّا للكولسترول! إنّه اختراع مَن لا يعرفون مذاق الطعام الشهيّ!

مع اللقمة الثانية، رفعتُ رأسي نحو السماء، ووجّهت انتقادًا لاذعًا إلى الدكتور مورا الذي تجرّأ على أن يمنعني من أكل الخبز بسبب إصابتي بمرض السكّريّ، والملح بسبب ارتفاع ضغط دمي، واللحم بسبب مرض النقطة. لو أنّني أصغيتُ إلى ذلك الرجل الميت حيًّا، لكنت أرقد تحت التراب منذ زمن طويل. وهكذا، أكلت لقمة كولسترول، متبّلة برشّة سكّريّ، مع شيء من ضغط الدم.

وأغمضت عينيّ مستمتعًا على نحوٍ جليّ بطعامي أمام مولاي الجائع الذي كان ينظر إليّ بطرف عينه.

عند الاستراحة الأولى، وحين توقّف جرس الهاتف عن الرنين، اقترب سيدي منّي، ومن طبقي تحديدًا، وأخذ قطعة لحم ذائب ووضعها في فمه. ثمّ أخذ قطعة أخرى ابتلعها بسرعة البرق. بعد ذلك، أخذ الخبز من يدي، وما هي إلّا دقائق حتّى أتى على طبق الطاجن بكامله. كاد حتّى أن ينسى وجودي – أسعدني كثيرًا أن أرى مولاي يتوقّف أخيرًا عن صيامه الذي سبّبه التوتّر – ثمّ تهالك سيدي على أريكة مطلقًا تنهيدة اجتمعت فيها كلّ تعابير الحمد والشكران التي لدى المسيحيّين والمسلمين واليهود... ولدى كلّ إنسان جائع يحظى بقطعة خبز مغمّسة بالدهن. بعدما انتهت مهمّتي، نهضت مستئذنًا سيدي بالانصراف.

– لن تذهب إلى أيّ مكان، قال لي الملك.

– حسنًا يا مولاي.

– سنسافر بعد ساعة.

وافقت.

مساء ذلك اليوم، حملتنا طائرة إلى أغادير. وهناك، أعطى سيدي عند منتصف الليل إشارة البدء بالمسيرة الكبرى.

11

نعم، أعترف بأنّني أؤمن بالخرافات. شئنا أم أبينا، ثمّة أمور تبدو صدفة ولكنّها ليست كذلك، ونهايات سعيدة تأتي من السماء، وعلاقات بين أمور تنشأ فجأة لأنّ ملائكة الخير توافقت على نسجها، تمامًا كما ثمّة مؤامرات تعدّها أرواح شرّيرة، وأعمال ثأر مخيفة ليست إلّا عقابًا طبيعيًّا للشرور... ثمّة أمور كثيرة لا نعرفها، وأسرار كثيرة ظاهرة للعيان ولكنّنا لا نراها.

أمّا أنا فأملك حيلة منقذة حين توصد في وجهي الأبواب، ومفتاحًا عجائبيًّا يأتي من زمن آخر، ومن شِعر آخر، وهو يحميني ويقيني الويل. ففي وجه العداوات، والأمل الذي يتضاءل أحيانًا، والظلام الذي يبتلع النور، والعالم الذي يوشك أن ينهار فوقي، يكفيني أن أتلو قصيدة المنفرجة لكي تتبدّد الغيوم وينقشع ظلام عذابي ليحلّ النور محلّه.

ما هي تلك الصيغة السحريّة التي تقضي على الشرّ بفعالية؟ المنفرجة هي قصيدة ألّفها شاعر وصائغ عاش في القرن الخامس للهجرة، وكان أحد أفراد حاشية ملك من المرابطين مشهور بظلمه وفتكه. نعم، يستطيع المرء أن يكون شاعرًا وصائغًا في الوقت عينه. لا شيء يحول دون ذلك. بل بالعكس، فإنّ المهنتين تتشاركان أمرًا

جامعًا وهو التعامل مع الكنوز، وصوغ الحليّ كما الكلام الثمين، والتركيب الدقيق الذي يثير أقوى المشاعر سواء أكان في مجوهرات أم في أبيات... بأيّ حال فإنّ شاعر البلاط ذاك، واسمه أبو الفضل، ألّف قصيدة أسطوريّة في ليلة كان يُفترض أن تكون آخر ليلة من حياته. روى أبو عليّ تلك القصّة في آخر حياته، لتكون لي بمكانة تعويذة لا تفارقني وتطرد عنّي عين الحسد. سأنقلها إليكم كما وصلتني.

عشيّة ولادة زوجته، أعطى الملكُ الصائغَ ياقوتة كبيرة الحجم ومدهشة بنقائها وشفافيّتها، وحين تنعكس عليها أنوار السماء يتراقص فيها الضوء والبريق وتموّجات اللون الأخضر. كان الشاعر ينظر إليها بعيني الصائغ، والصائغ بعيني الشاعر. وفجأة أصبح العالم في عيني كلّ من الصائغ والشاعر شفّافًا، ومسحورًا، ومتلوّنًا بأبهى الألوان.

طلب الملك من الصائغ خاتمًا خفيفًا يُبرز عظمة الحجر الكريم، وشقوقه الصغيرة المسمّاة «بساتين الياقوت». إنّها تحفة حقيقيّة جاء الملك بها من منطقة نائية في شرق مصر. وكان سعيدًا بأنّه سيهديها إلى زوجته التي ستلد صبيًّا بحسب توقّعات كلّ المنجّمين، ويتهيّأ لاستقبال وليّ العهد بكلّ أبّهة وفخامة.

أخذ أبو الفضل الياقوتة إلى مشغله، وأشعل مصابيح الزيت، ووضع عدّة العمل بعناية على الطاولة، ثمّ ثبّت نظّارته على عينيه وبدأ العمل بحماسة وتصميم. فالملك ينتظر إنجاز الخاتم في صباح اليوم التالي. ولكن، «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»، كما كان أبي يردّد. ويحدث أحيانًا أن يأتي سوء الحظّ إنسانًا دون غيره، وتتآمر عليه أبراج الشرّ، وتستهدفه الشياطين عازمة على تعذيبه. ما كاد

أبو الفضل يبدأ بالعمل على الياقوتة حتّى انشطرت فجأة إلى نصفين، بدون أن يفهم الصائغ كيف يمكن حدوث هذا الأمر لحجر بتلك الصلابة. تجمّد الرجل في مكانه عاجزًا ومحدّقًا في المصيبة التي وقعت والتي لا حلّ لها. فالملك يتباهى بالهديّة التي يريد تقديمها لزوجته مع ولادة الأمير. ياقوتة لا مثيل لها، آتية من أطراف الصحراء. وها هو الصائغ قد أفسد عليه متعته المنتظرة. ما العمل؟ بأيّ كلمات يخبر الملك بما جرى؟ ما من شكّ في ما ينتظره من عقاب: قطع الرأس ولا شيء سواه. أيّ عذر يمكنه اللجوء إليه؟ عدم الكفاءة؟ الخفّة؟ لم يكن لديه من مهرب. إثارة استياء الملك على هذا النحو أمر يستحقّ الإعدام. كان أبو الفضل يدرك ذلك، فقضى معظم ليله في مشغله، واضعًا رأسه بين يديه، يئنّ ويلطم وجهه كنادبة تتقن حرفتها. حين رأى الشاعر حزن الصائغ وانهياره ويأسه، حاول تعزيته. فلجم مشاعر الأسى، وأطلق العنان لأجمل ما جادت به قريحته وكتب قصيدة إلى الله لا يمكن لإنسان أن يكتب مثلها. وهكذا أبصرت النور قصيدة المنفرجة، وهي معجزة أدبيّة يضرع فيها رجل مذلول إلى خالقه لكي لا يتخلّى عنه، بعبارات مفعمة بالرقّة والوقار، وتشي بدموع محبوسة. فاستجابت السماء لتلك القصيدة العابقة بالحنان، والدموع، والتواضع، والتقوى. إنّ الله يستجيب للعبقريّة.

مع انبلاج الفجر، سمع أبو الفضل طرقًا عنيفًا على بابه أيقظه من حالة الذهول التي غرق فيها. فتح الباب ليرى الوزير بنفسه على صهوة جواده الأبيض، يحيط به حرّاسه.

– عندي لك خبر سيّئ يا أبا الفضل!

– هل عرفت بالأمر يا سيّدي؟

– أيّ أمر؟
– أمر الياقوتة، قال وهو يرتعد.
– الواقع أنّني أتيت أطلب منك أن تبدأ عملك بكامله مجدّدًا. فالله قد أنعم على صاحب الجلالة بتوأمين، صبيّ وبنت. والملك يريد منك أن تصنع خاتمين متطابقين، لا واحدًا فقط. ويأمرك بأن تقسم الياقوتة نصفين، وبأن توافيه بالخاتمين عند تمام الساعة الثامنة من مساء اليوم.
– بكلّ سرور يا سيّدي! سأباشر العمل حالًا! شكرًا يا سيّدي. الحمد لك يا ربّ!
هكذا أنقذ الله الصائغ أمام عيني الوزير الذي ابتسم متعجّبًا من غرابة سلوك أبي الفضل.
لذلك أصبحت المنفرجة بمكانة تعويذة لي، فكنت أردّدها لنفسي دائمًا لشدّة ما أثّرت فيّ شكوى الشاعر المكتوبة بأرقّ التعابير والمجلّلة بالوقار. أنقذتني تلك القصيدة الرائعة من المتاعب مرّات متعدّدة، لا جدوى من سردها. لكن ثمّة مرّة وجدتني فيها بحال تشبه حال أبي الفضل على نحو غريب. فبرغم فارق القرون الطويلة، كان أسلوب مليكي ومليكه في ممارسة السلطة واحدًا: كلاهما لا يتردّد أبدًا في قطع الرؤوس حين يرى ذلك ضروريًّا. ولا فرق عند أيّ منهما بين حياة إنسان وحياة حشرة.
سيتذكّر ساهر طويلًا تلك الليلة الشتويّة في قصر جبليّ نادرًا ما نذهب إليه. اختارنا سيدي من بين معظم أفراد الحاشية للبقاء معه حتّى ينام. وفيما كان الموسيقيّ يتلاعب بأوتار عوده برقّة، بدأت بسرد حكاية طريفة سمعتها في اليوم السابق. ستفهمون لاحقًا أنّ ما من مهرب لكم حين تتآمر عليكم الملائكة. أجهل لمَ اخترتُ

تلك الحكاية لا غيرها. كانت تحكي قصّة ملك أندلسيّ استدعى في أحد الأيّام كلّ نساء حريمه، وعددهنّ خمسون، من مختلف الأعمار، جمعهنّ في حديقة النساء، وهناك نهض وقال لهم بنبرة الجدّ: «جمعتكنّ اليوم لأعلن لكنّ خبرًا سيّئًا. ولا شكّ في أنّكنّ ستكرهنني. لكن لم يعد بوسعي أن أخفي مشاعري أكثر. أنا مولع بحريم آخر!».

أجهل ما الذي أضحك الملك: أهي حكايتي أم ساهر الذي راح يتقلّب أرضًا ككلب صغير. ثمّ تذكّر أنّه في حضرة الملك، فعاجل بالنهوض وعاد للعزف على أوتار عوده. أتبعتُ تلك الحكاية بقصائد علّقتُ عليها بذكاء، متحدّثًا عن حياة مؤلّفيها، وأزمنتهم، وغراميّاتهم، وعذاباتهم، واسترسلت في استطرادات وجد سيدي صعوبة في متابعتها بعد يوم العمل المرهق. وبرغم محاولاته، انتهى به المطاف إلى الاستسلام للنوم. مع سماع غطيط الملك، أشرت إلى ساهر بأن يخفض صوت عزفه. بعد ذلك غادرنا جناح الملك الواقع في الطابق الأخير من مبنى عند سفح جبل مكلّل بالثلج. دخلنا المصعد للذهاب إلى حيث ينتظرنا رفاقنا في أحد صالونات الطابق الأرضيّ، متحلّقين حول موقد كبير يتّسع لعدّة دجاجات وخروف متوسّط الحجم، أي لإعداد وجبة مشاوي وفق الأصول. لا شكّ في أنّ ساهر أخطأ في الزرّ الذي ضغط عليه، لأنّ باب المصعد فُتح على طابق مجهول. خرجنا غير متنبّهين إلى أنّنا وصلنا إلى مقرّ خليلات الملك. سمعنا من الغرف القريبة أصواتًا حادّة وضحكات جمّدت الدماء في عروقنا. وحين أردنا أن نعود أدراجنا، اكتشفنا بكثير من الخوف أن لا وجود لأيّ زرّ يمكننا الضغط عليه لإنقاذنا من الورطة التي أقحمنا نفسَينا فيها. نظر كلّ منّا إلى

الآخر، تائهًا، مرتبكًا. أيّ حجّة نملكها إذا شاء سوء الحظّ أن يعلم الملك بدخولنا على نسائه؟ «جعلناك تنام كطفل يا مولاي، ثمّ نزلنا إلى حيث حريمك!». هكذا سيُنظر إلى عملنا الطائش وغير المسؤول. جلس ساهر القرفصاء واضعًا عوده بين ركبتيه. كنتُ مشوّش الذهن ولم أدرِ ما أفعل، فحذوت حذوه. وفجأة خرجت أبيات قصيدة «المنفرجة» من فمي كالصلاة.

الحريم هنّ أحد المحرّمات في القصر الملكيّ. لم ننسَ قطّ تلك القصّة الرهيبة التي حدثت خلال الانقلاب، حين نجحت مجموعة من الجنود في دخول مقرّ النساء اللواتي أصابهنّ الهلع، وكنّ ينتظرن أن تجهز عليهنّ رشقات الرصاص. اقترب أحد المتمرّدين، وهو رجل من الرعاع عيناه محتقنتان بالدم، من إحدى خليلات الملك، وكان الرعب قد شلّ حركتها. ثمّ رفع قفطانها، وسدّد ماسورة بندقيّته إلى عضوها الجنسيّ، ثمّ راح يحرّكها إلى الأمام وإلى الوراء، وسألها: «أهنا يضع سيّدك عضوه أيّتها الخنزيرة السمينة؟»، شعر جنديّ آخر بالإهانة لسماعه هذا الكلام، فدفع رفيقه الفظّ بعنف وصاح به: «نحن لا نهاجم النساء أيّها الحقير! ألا تعرف معنى الشرف؟ اخرج وإلّا فحسابك معي!».

هذا الجرح لم يندمل في ذاكرة سيدي قطّ. وكان يذكره باستمرار بمرارة مَن يشعر بحاجة إلى الثأر، وبقهر رجل جبّار أساءت إليه حشرة. كان مستعدًّا ليتخلّى عن مملكته كلّها لقاء العثور على الحقير الذي أذلّه بتلك الطريقة، ومعاقبته بالطريقة التي يجيدها. قادت التحقيقات المتعدّدة التي أجريت إلى سجن الجنوب الرهيب، حيث يقبع ابني معتقلًا. تمّ التعرّف إلى الرجل الذي أنقذ النساء، وجيء به أمام الملك. كنت في الغرفة ليلتذاك حين ظهر عملاق

معصوب العينين محاطًا بأربعة حرّاس. لا شكّ في أنّ الرجل تعرّف إلى صوت الملك الذي قدّم إليه عرضًا بسيطًا، وواضحًا، وصادقًا: «أعطني اسم الرجل الذي أهان امرأتي، وستكون حرًّا اعتبارًا من هذا المساء حتّى».

تذرّع العسكريّ بالنسيان، ورفض أن يشي برفيق سلاحه، فكلّفه ذلك حياته. كنت أجد صعوبة في فهم روح الانتماء إلى الجيش التي تجعل الجنديّ لا يتردّد لحظة في التضحية بحياته لإنقاذ حياة رفيقه. إنّ هذا النوع من التضامن غير موجود في العالم الذي أعيش فيه، حيث المرء مستعدّ للتضحية بقبيلته كلّها لينجو بنفسه!

ذلك الجرح القديم لدى سيدي كان وحده مبرِّرًا كافيًا لحبل المشنقة الذي استحققته وساهر بدخولنا إلى طابق النساء. فيما كنت أتلو قصيدة المنفرجة، لم ألحظ أنّ الخوف يرفع صوتي أكثر فأكثر. وآنذاك فُتح باب ظهرت منه امرأة متقدّمة في السنّ كنت ألتقيها أحيانًا في جناح سيدي. جحظت عيناها حين رأتنا جالسين القرفصاء بقرب المصعد. فقالت لي:

– ماذا تفعل هنا يا محمّد؟

– أنقذيني يا بنيّتي، لقد ضغطنا على الزرّ الخطأ. ولم نعد نعرف كيف نخرج!

وضعت سبابتها على فمها وأومأت إلينا بأن نتبعها. سرنا في ممرّ ينتهي بدرج للخدم لولبيّ نزلنا عليه كاللصوص. وفي الأسفل همست لحارس المدخل بكلمة واحدة، وتوارينا عن الأنظار كأنّ شيئًا لم يحدث قطّ.

تلك كانت القوّة المدهشة لقصيدة المنفرجة.

إلّا أنّ لكلّ شيء حدودًا.

لا بلال وأوراقه السحريّة، ولا موهبة الدكتور مورا الأسطوريّة، ولا حتّى عالِم الأعشاب الذي يحرق في مبخرته مركّبًا كيميائيًّا يفقأ به عين الحسد استطاعوا توقّع المأساة التي ستحلّ بنا بكلّ قوّة، وبلا سابق إنذار، وبدون أن نكون مستعدّين لهذا الغياب الذي لا يُحتمل، لهذا الفراغ الذي كان أقسى – أعترف بذلك – من غياب ابني. انصبّ اهتمام الدكتور مورا على صحّة الملك المتدهورة، وصيامه المتكرّر الذي كان يثبط عزائم الجميع، لدرجة أنّه لم يأخذ على محمل الجدّ تردّي حالة الموسيقيّ ساهر، ولا الآلام والشلل المتكرّر الذي أحسّ به في ذراعه اليسرى. لم يكن الرجل يعبّر عمّا به إلّا بكلمات قليلة، كأنّه يعتذر عمّا يحسّ به، ويرفض إزعاج أحد. فلم تُقلق الطبيب حالات الضياع التي كانت تنتابه، وعزاها إلى التعب.

ذات مساء، ووسط ضوضاء قاعة الانتظار حيث نترقّب عادة أن يستدعينا الملك، صلّى ساهر وأتى للجلوس بقربي. كان منزلانا متجاورين، وكانت زوجتانا على أتمّ اتّفاق وتمضيان معظم أوقاتهما معًا. أسرّ لي ساهر أنّ صداقتهما تغمره بالسعادة وتطمئنه، فوافقته مبتسمًا. بعد ذلك تحدّث أمامي عن تقليد قديم لدى المسلمين يقضي بأنّه، وحين يموت رجل ما، يوصى شقيقه بالزواج بأرملته لضمان حماية أيتامه. الحقيقة أنّ ذلك التقليد المنافي للطبيعة كان يثير اشمئزازي. فأنا أنفر من أن يناكح رجل زوجة أخيه بحماية الشرع، وكان الأمر بالنسبة إليّ زنًا محارم، لا أكثر ولا أقلّ. لكنّ ساهر لم يشاطرني رأيي، بل أيّد بوضوح هذا الحلّ، متذرّعًا بأنّ العمّ لا بدّ من أن يحيط أبناء شقيقه بالحنان أكثر من أيّ زوج

آخر. وتابع يقول إنّ النبيّ محمّدا في الحديث أثنى على محاسن هذه الممارسة. بعد هنيهة صمت، فاجأني ساهر بقوله: «لا تنسَ يا محمّد أنّنا شقيقان، أنت وأنا!»، بثّت نبرة صوته القشعريرة بين كتفيّ، وأكاد أقسم بأنّني شعرت بالموت يحوم حولنا. قطعت ذلك الحديث العقيم جازمًا بأنّني لا أنوي الموت، ولا التخلّي عن زوجتي لرجل آخر. ارتسمت شبه ابتسامة على شفتي ساهر، وأخذ عوده وحاول عبثًا أن يدوزن أوتاره، قبل أن يضعه أرضًا بين مقعدين لحمايته. ثمّ خلع حذاءه واستلقى على مقعد. وفي صمت تامّ، كما عاش تمامًا، أسلم الروح في غفلة عنّا جميعًا. غادر قاعة الانتظار على رؤوس أصابعه، كما دخلها منذ ثلاثين عامًا، وانسحب كفنّان حقيقيّ. حرمنا ساهر فنّه، وغناءه، وموسيقاه، وشعره، ورقّته، وابتساماته التي كانت تتغلغل إلى أعماق أرواحنا، وتركنا أيتامًا لحقيقته وتضامنه معنا، ذلك التضامن الذي قضى أعوامًا طويلة يحاول زرعه بيننا. سأظلّ حتّى يوم القيامة حانقًا على الطبيب الذي تركه يرحل بدون معركة، وعلى العرّاف الذي لم يطلعنا على تلك المأساة قبل عام. أنا حانق على نفسي لأنّني لم أتنبّه لضعفه، وتراجُع أدائه الموسيقيّ المتكرّر، وحانق على رئيس الخدم الذي قرّر أن يخفي عن الملك خبر موت ساهر، وحانق على أفراد الحاشية لمشاركتهم في الصمت الذي فُرض علينا لئلّا نخيف الملك المحتضر. كان ساهر يستحقّ مراسم تشييع وطنيّة وأكثر. كان على الشعب كلّه أن يبكي غياب إنسان له كلّ هذا النقاء، والموهبة، والسخاء. وجدتُ أنّ من الظلم أن يُنقل جثمان الموسيقيّ إلى مسقط رأسه بدون صلاة، ولا مراسم، ولا تكريم.

ومع ذلك، لم أكن ممّن يستسلمون بدون قتال. بدا ساهر المضطجع في وضعيّة الجنين، بجلابيّته المنسوجة من قماش الكشمير، وكأنّه نائم. كيف استطاع الموت أن يقلّد النوم بمثل هذه البراعة؟ أيّها الموت الخائن! أيّها اللصّ الماكر الذي لا تخلو جعبته من الحيل! ومع ذلك كانت لديّ أسلحة سرّيّة لأقيم صديقي من الموت. انحنيت فوق أذنه، وتلوت قصيدة المنفرجة، مقتنعًا بأنّ النائم سيفتح في النهاية عينيه وينهض، ويستعيد عوده ليطربنا بموهبته الكبيرة من جديد. ألقيت القصيدة بيتًا بعد الآخر، متمهّلًا في المقاطع الصوتيّة كما يفعل إمام مسجد القصر في حضور الملك. وحرصت على تلاوتها بصوت واضح ليفهمني الله على نحو أفضل. كنت مقتنعًا بأنّ ساهر سينجو من براثن الموت، وأنّه سيعود للتحليق عاليًا مع الملائكة والعصافير، ويأخذنا معه، ويُحسن إلينا بأن يدعنا نرى، ولو من بعيد، عالمًا لا يصله سوى المجانين والفنّانين. كنّا مستعدّين للّحاق به، والاحتفاء به، وتبجيله. وضعت يدي على خدّه، ثمّ على جبينه البارد قليلًا، ورحت ألقي القصيدة العجائبيّة أجمل إلقاء. لا بدّ من أن تنتزع المنفرجة من شفتيه ابتسامة، وتعيد البريق إلى عينيه اللتين تضخّمهما نظّارته السميكة فتبدوان قبيحتين. عينان مفتوحتان، حائرتان، متوقّدتان. عينان تنظران، تحبّان، تشتكيان، وتتوهان في الفراغ أحيانًا. عينان تلتفتان إلى الظلمة الداخليّة فترتاعان من المتاهات الجهنّميّة للنفس البشريّة وتعودان بسرعة إلى ضوء النهار. لكن لا شيء. بقي ساهر بلا حراك. عبثًا حاول الدكتور مورا إنعاشه، بالضغط بقوّة على صدره، والنفخ في فمه، لكنّه لم يستجب. تمّ الأمر. الموت هكذا، أحمق وغبيّ. ولا أحد يستطيع شيئًا. يومذاك تبيّنت لي

حدود قدرة قصيدة المنفرجة، وعدم جدواها.

لكنّ أمرًا غريبًا حدث: لا أحد من أفراد الحاشية تذكّر أنّه رأى القزم بودا يبكي كما بكى لموت الموسيقيّ ساهر.

12

كلّ أمّ، ولو كانت عجوزًا تملأ وجهها التجاعيد، أو مقوّسة الظهر وشبه عمياء، تنشأ لديها حاسّة سادسة حين يتعلّق الأمر بأولادها، حاسّة قد تثير غيرة العرّاف بلال. بعد عشرين عامًا، ما كان أحد ليراهن بفلس واحد على عودة معتقلي سجن الجنوب. وحدها مينا كانت مقتنعة بأنّها ستعود لرؤية ابنها المفقود، وأنّها ستحتضنه مجدّدًا بين ذراعيها، وتكلّمه كما كانت تفعل في السابق، وتغمره بكلّ الحبّ الذي حُرم منه سنين طويلة. حين كانت تتحدّث ونحن جالسون إلى المائدة عن عودته القريبة، أتبادل وولديّ نظرات التعاطف، ونتظاهر بأنّنا نصدّق رغباتها الناتجة من الأوهام. كان توفيق الصغير يطرح عليها أسئلة كثيرة حول أخيه البكر الذي بالكاد يعرفه. فتستوي مينا في جلستها، وتختفي عن وجهها تجاعيد الحزن، وبفخر أمّ شابّة، تتغنّى بجمال ابنها البكر وذكائه وحسّ الفكاهة المدهش لديه. كانت تختزن ذكريات من طفولته ومراهقته وسنواته الأولى في الجيش أشبه بينبوع لا ينضب، فتروي حكايات مستعادة ألف مرّة، وتغرق في التفاصيل التي تضخّمها، وتسترسل إلى ما لا نهاية. كانت كلّ حكاية تغذّي أخرى، حقيقيّة أو مختلقة، فتجري عبر متاهة من التخيّلات الملأى بحوادث مشكوك بصدقها.

غير مهمّ! ففي عينيها اللتين تشرقان فجأة كانت تلتمع حقيقة ملموسة ولا تقبل الشكّ.

ما القول؟ برغم حذاقتنا وتبصّرنا، فقد كنّا كلّنا على خطأ! نحن الذين ظننّا مينا عجوزًا تهوى المبالغة وتعيش على الأوهام، خفضنا أبصارنا كلّنا خجلًا حين حدث ما لم يكن في الحسبان.

ذات يوم، سمعت مينا، التي باتت عجوزًا وضعيفة القوى، طرقًا على الباب كقرع طبل أفريقيّ. في الحال عرفت هذا الطَرق المألوف، فوثبت من السرير خافقة القلب، وهرعت إلى الخارج تبحث عن ابنها المهيب القامة. لكنّها وبدلًا من ذلك رأت جنديّين يمسكان بذراعي عجوز هزيل كجثّة، قصير القامة، مقوّس الظهر، ذي خدّين ضامرين نتأ عظمهما، وفوقه عينان شاردتا النظرات وغائرتان في محجريهما. كان ذلك الجسد المتداعي والعاجز عن الوقوف، الذي جعلته يد البربريّة والكراهية على هذه الصورة، يبتسم لها بفم مكسّر الأسنان. تفحّصت مينا بحذر الرجل الذي يعيدونه إليها، شاكّة في أنّه ليس ابنها. ولكنّ الخال على الخدّ الأيسر هو خال ابنها. تردّدت في أن تصدّق عينيها اللتين وَهَنَ بصرهما. هابيل كان طويل القامة، متين البنية، وذي قوّة طبيعيّة من المستحيل تقزيمها على هذا النحو. بدا وكأنّه قطعة ملابس غُسلت بماء مغليّ. كيف استطاعوا إهزال جسد قويّ كجسد ابنها، وإذابة لحمه، وجعله كتلة من عظام وأعصاب، كشجرة متروكة جفّت تحت شمس الجنوب؟ غير معقول! لكنّ شكوكها تبدّدت حين سمعت صوت ابنها الفريد يقول لها: «هذا أنا يا أمّي، هذا فعلًا أنا!»

أنعمت مينا النظر، واقتربت من هابيل وشمّته كحيوان. ولم تضعف ساقاها كما قد تفعل أيّ أمّ حين ترى ابنها – أو ما بقي

منه – بعد غياب عشرين عامًا. أبت على نفسها أن تفقد رباطة الجأش، وأن تستسلم لشياطينها التي كانت تحثّها على أن تتمرّغ في التراب، وتضرب رأسها بالأرض، وتلفظ كلّ ما تراكم في قلبها من مرارة منذ دهور. لكنّها قاومت وتماسكت. لا. هذا ليس وقت السقوط. عشرون عامًا ولم تذعن لنداء الظلمات المغري، ولا لخلاص العدم الحالك السواد. عشرون عامًا طويلة كان يكفيها خلالها أن توافق مرّة واحدة حتّى تغرق إلى الأبد، وتتخلّص من حملها الذي بات ثقيلًا عليها. لا، لقد رفضت أن تسمح لركبتيها بأن تنثنيا، أو لجسدها الواهن بأن ينهار كجدار متداع جُبل من طين وبصاق، ظلّ واقفًا إلى أن استجاب الله أخيرًا لرغبتها في أن ترى ابنها قبل أن تموت، بعدما أرهقته بصلواتها. حاول هابيل الانحناء لتقبيل يدها، مسنودًا من الدركيّين المتأثّرين. فمنعته مينا من ذلك وارتمت هي على صدره. وكادت حتّى أن ترفعه عن الأرض لأنّ وزنه لم يعد يتجاوز وزن طفل هزيل سقيم. قالت له: «تعال يا صغيري، لندخل! لا بدّ من أنّك جائع. تعال، سأعتني بك. لن أدعهم يؤذونك بعد اليوم. هيا يا حبيبي، ابذل مجهودًا، ولندخل. رويدًا رويدًا أيّها السيّدان! ألا تريان أنّه يعاني...».

وجد الرجلان صعوبة في حمل هابيل إلى الصالون، وخلفهم مينا التي رفضت أن تترك يده، وكأنّها تخشى أن تفقده مجدّدًا. مرّت المجموعة الصغيرة بمدخل المنزل، وصعدت درجات قليلة، ثمّ اجتازت الباحة، ودخلت الصالون. حين وضع الشرطيّان هابيل على أريكة، فوجئا بردّة فعله الغريبة. فقد هزّته ارتجافة واضطرب بقوة، فتمسّك بالرجلين وكأنّه يخشى أن تبتلعه الأريكة. من الواضح أنّ عشرين عامًا من النوم على الإسمنت قد فعلت فعلها فيه. طمأنته

مينا وجفّفت عرق جبينه بمنديل وشكرت الشرطيّين. قبل الانصراف، وقف هذان الأخيران وقفة تأهّب، وخبطا جزمتيهما بالأرض معًا وهما يؤدّيان التحيّة العسكريّة للرجل الشبيه بالمحتضر، كما لو أنّه قائد كبير.

لشدّة ما حلمت مينا بهذا اللقاء، وقفت مرتبكة أمام ابنها الذي عاد بعد غياب. فزغاريد الفرح التي تخيلتها في أوقات وحدتها، والهتافات التي ستعلن للعالم كلّه سعادتها، اختفت ليحلّ محلّها الصمت والخشوع. لم تبكِ. لم تتأوّه. بل اكتفت بأن تمسك بيده. كان هابيل يداعب خدّيها أحيانًا، ويحملق بالسقف ناسيًا أن يرمش بعينيه. اقتصر التواصل بينهما على مجرّد ابتسامات عابرة، ونظرات سريعة، وأنفاس متقطّعة، وحركات بسيطة. شعرت مينا بأنّه متعب، فاقترحت عليه أن يستلقي ويضع رأسه على ركبتيها. امتثل لرغبتها وهو يخشى الأريكة اللينة. ثمّ أخذت تبحث في شعره كعادتها في الماضي، حين كانت عيناها تسمحان لها بالعثور على القمل الذي غالبًا ما ملأ رأس الولد المشاغب. آنذاك كانت تتسلّح بالصبر وتقضي ساعات وهي تفتّش في شعر ذلك الولد الكثّ. وكان هابيل يدعها تفعل، مستسلمًا لدغدغات والدته ومهارة أصابعها التي تُغرقه في نوم هادئ وعميق.

وهكذا عاد إلى منزلي بكر أبنائي، الذي تبرّأتُ منه علنًا.

قضينا عدّة أيّام في المنزل نفسه بدون أن نتلاقى. حبس هابيل نفسه في غرفة في الطابق السفليّ، حيث كان يبقى لساعات جالسًا القرفصاء في الظلام. لم يكن يحبّ الضوء ولا الضجيج. وحين كانت عائشة تحمل إليه الطعام، يضع رأسه بين ركبتيه ويحمي وجهه وكأنّ أحدهم ينوي ضربه. كانت الخادمة العجوز تتظاهر بأنّها

لا تلاحظ شيئًا، فتضع الصينيّة من يدها وتخرج بسرعة. «يحتاج إلى وقت للخروج من السجن»، كانت تقول لمينا الواقفة خلف الباب قلقة. كانت كلّ من المرأتين تعزّي الأخرى، وهما مقتنعتان بأنّ الوقت كفيل بحلّ الأمور. بدت مينا وكأنّها استعادت شبابها، فأمسكت بزمام الأمور في المنزل مجدّدًا. لم يعد باستطاعة هابيل بعدما فقد أسنانه أن يتذوّق أطباقه المفضّلة، فكانت تعدّ له أنواعًا مختلفة من الحساء بالكرّاث، أو القلقاس، أو القرع، أو أيّ نوع متوافر من الخضار، وتهرس له الفول، والبازلّاء، والباذنجان المطهوّة بزيت الزيتون أو زيت الأركان. كانت تبتكر دائمًا أطباقًا جديدة. كما كانت أحيانًا تحمل له طعامه بنفسها، فتدخل بصمت وتضع الصينيّة أرضًا وتجلس بجانبه بدون أن تكلّمه، أو تكتفي بمكالمته همسًا. ومع الأيّام، اعتادت قضاء فترات بعد الظهر الهادئة تلك بالقرب من ابنها. العيش في الظلمة التامّة له بعض الحسنات التي لا يستطيع المبصرون تقديرها. فطوّرت، كالعميان، ثروة حواسّها الأخرى الهائلة. تعلّمت أن تصغي إلى أنفاس ابنها، وتحلّل حركاته التي تكاد لا يُسمع لها صوت، وتراقب نبض روحه، وتقرأ أفكاره، وتشعر بتقلّبات مزاجه. خلافًا لما يوحي به، لم يكن هابيل فتى حزينًا. بل كان يسبح في صفاء لا يستطيع البشر العاديّون بلوغه. أدركت مينا بسرعة أنّ انغماس الإنسان في الأفكار، لا في المشهد المحيط به، يتيح له حرّية كبيرة تصبح معها العودة إلى الحياة العاديّة مصدر حزن واكتئاب. في أحد الأيّام، تجرّأت مينا على كسر الصمت، فسألته:

– أهكذا كنت تعيش هناك؟

تأخّر هابيل في الردّ.

– تقريبًا... ولكنّ تعبير «أمارس البقاء» أنسب لوصف حياتي هناك.

– عشرون عامًا من الظلام الحالك!

– لا، في النهار كنّا نستطيع تمييز الجدران...

– والصمت؟

– لا وجود للصمت. إذا قضيت معي بضعة أسابيع أخرى في هذه الحجرة، ستكتشفين عالمًا من الأصوات لم يخطر ببالك قطّ!

– ماذا كنت تسمع هناك يا بنيّ؟

– كنت أسمع عالمًا بكامله يا أمّي: صوت شفرات طاحونة هوائيّة تدور، وصدى الأذان وكأنّه يأتي من عالم الغيب، وطيران عصفور ينذر بسوء حال الطقس أو بهبوب عاصفة رمليّة، وحشرجة حزينة تعلن احتضار أحد الرفاق... عالم بكامله يا أمّي، حيث الفكر المتيقّظ لا يغفل عنه شيء، فنستطيع تمييز وقع خطوات الصرصور من وقع خطوات العقرب.

نظرت مينا تحت قدميها بخوف. لكنّها لم ترَ ابتسامة هابيل الذي حزر ما تقوم به.

– هل كنت تكلّم أصدقاءك كثيرًا؟

– في البداية نعم، لأنّ عددنا كان نحو ثلاثين شخصًا، وفي حالة غليان دائمة. لكنّ الأمور هدأت في السنوات الأخيرة تحت وطأة الواقع. لم يبقَ منّا سوى أربعة.

– أين ذهب باقي أصدقائك؟

– ماتوا ببطء، الواحد تلوَ الآخر، كما كان الملك يرغب.

تمخّطت مينا، وانقبض حلقها فلم تستطع الكلام.

– اشربي كوب ماء يا أمّي.

– أنت تكرهه، أليس كذلك؟
– الملك؟ أبدًا يا أمّي.
– كيف يُعقل ذلك؟
– إنّها مسألة بقاء، هذا كلّ شيء!
فكّرت لبرهة، ثمّ قالت:
– لا بأس يا صغيري. في قلبي من الحقد ما يكفي قبيلة بكاملها!
– أنا أيضًا غير حاقد على أبي! وللمناسبة، أودّ كثيرًا أن أراه.
– هل أنت واثق؟
– نعم.
– تعرف أنّ...
– نعم، أعرف يا أمّي.
– ولست غاضبًا منه...
– لست غاضبًا من أحد.
– يجب أن تعلم بأنّه...
– لم يكن يملك الخيار يا أمّي. كما أنّني رأيت في السجن فظائع الكراهية.
تمخّطت مينا مجدّدًا.
– كيف لا نكره مَن أسالوا دموعًا كثيرة في منزلنا؟
تنحنح هابيل وقال:
– الكراهية تُعمِل سمّها في قلب صاحبها قبل أن تصيب الآخرين، فتهدّه وتنهشه، وتقتله ببطء.
– ولكن كيف نقتلعها من القلب بعد أن تكون جذورها قد تمدّدت بعيدًا؟

– المسامحة دواء عجائبيّ يا أمّي. من بين المعتقلين الثلاثين في المبنى باء، لم يبقَ منّا على قيد الحياة سوى أربعة... لأنّنا تعلّمنا أن نلفظ من قلوبنا سمّ الكراهية.

– هل من السهل مسامحة الجلّاد؟

– الجلّاد لا يعود موجودًا يا أمّي، بل يتحوّل إلى مجرّد منفّذ لمحنة ابتلانا الله بها.

– إذًا كيف لا نكره الله؟

– الله محبّة. التقيته في سجني.

ذات مساء، طرقت مينا باب غرفة نومي، في نهاية يوم مرهق كان مزاج سيدي سيّئًا للغاية فيه.

– ادخل!

– ابنك يودّ رؤيتك.

– ليدخل!

فتحت مينا الباب. كانت سعيدة برؤية هابيل يسير بلا عكّازين. أغلقت الباب خلفه وبقيت في الرواق منصتة، تخشى اندلاع شجار بيننا. مرّ وقت طويل ولم تسمع شيئًا. لا كلمة، لا همسة. اقتربت بقلق وألصقت أذنها بالباب.

بعد صمت طويل كادت أن تنقطع فيه أنفاسها، سمعت صدى بعيدًا لصوت رجلين يبكيان.

13

كان سيدي يسير بصعوبة، ومع كلّ خطوة يتوقّف لالتقاط أنفاسه، متّكئًا على عصاه، وهي قطعة من الخشب الثمين ذات مقبض عاجيّ على هيئة أسد يزأر، تثير إعجابي منذ زمن بعيد. في الماضي، كانت تلك العصا أداة يتباهى بها سيدي، ويسير في أروقة القصر متلاعبًا بها. لكنّ الأمر لم يعد كذلك. فقد استعادت العصا وظيفتها الأساسيّة لتسند جسدًا ضعيفًا ومريضًا وعاجزًا عن الحركة. كانت آثار الأرق ظاهرة بوضوح في ملامح سيدي المشدودة. وتوارت عيناه بين جفنيه الهابطين والجيوب المنتفخة والبشعة فوق عظم خدّيه. وحتّى حين كنت أغادر في ساعة متأخّرة ليلًا، كان رئيس الخدم يتّصل بي في الصباح الباكر، فأسارع إليه بفرح حقيقيّ. وكان يحدث أحيانًا أن أنام في القصر، لأنّ ذلك أسهل عليّ من الذهاب إلى بيتي والعودة. كنت أحبّ أن أتنزّه مع الملك حين تنبش الوحوش القابعة في بطنه مخالبها. تلك الاستراحة القصيرة هي التي كانت تسمح لسيدي بالبقاء واقفًا على قدميه. كنّا نسير جنبًا إلى جنب كصديقين قديمين، بدون أن نتحادث، أو يقتصر حديثنا على كلمات قليلة جدًّا. منذ أن بدأت أرافق

مولاي كنت أعرف تمامًا، وبدون أيّ تردُّد، اللحظة التي عليّ فيها أن أتدخّل.

في هذا الصباح، جلسنا على مقعد في ظلّ شجرة جكراندة مزهرة.

– أحبّ هذه الأزهار البنفسجيّة، قال لي، أجهل لماذا ينسب الرسّامون اللون البنفسجيّ إلى الموت...

– هذا اللون لا يوحي بالموت أبدًا، يا سيدي، لكنّك تعرف الفنّانين... لا يوجد جنس أكثر خداعًا منهم...

– صحيح، أنا أعرفهم حقّ المعرفة. إنّهم فريدون، ومرهفو المشاعر، وسعداء ظاهريًّا إلّا أنّهم يعانون ألمًا قديمًا جدًّا في الروح، وذوو حساسيّة مفرطة إلى حدّ المرض، تتحكّم بهم عزّة نفس لا حدود لها، أقوياء وضعفاء في آنٍ معًا. ولكنّني لم أشعر بالارتياح قطّ إلّا بصحبتهم.

– لهذا السبب استبقيتَني يا صاحب الجلالة، وتابعت أقول للملك الذي ابتسم: في كلّ الحكايات القديمة، غالبًا ما ارتبطت فكرة الموت بصورة نور قويّ، وعنيف، لا يمكن رؤية شيء من شدّة قوّته. ولا يمكن رؤية الألوان إلّا بعدما ينفتح باب السماء على مصراعيه...

رفع سيدي عينيه، وجال بنظراته في الأغصان المغطّاة بالأزهار تحت سماء صافية.

– إنّها المرّة الأخيرة التي أرى فيها هذه الشجرة مزهرة، أليس كذلك يا محمّد؟

لو كان الظرف عاديًّا، لكذبتُ، وأنكرتُ الحقيقة نكرانًا تامًّا، بكلّ ما أملك من قوّة، ولضاعفتُ ألف مرّة الوقت الذي تبقّى لمولاي من

الحياة. هذا اختصاصي: أنا أقبض أجرًا لتقديم الفرح وقول الكلام الذي يحبّ الملك سماعه. أقبض أجرًا لتزيين الأوهام بأشرطة حمراء، ولأقدّم بدون أن يرمش لي جفن، الأبد كلّه إلى ملكي الذي سيتظاهر بسماعي...

لو كان الظرف عاديًّا، لانتظر منّي سيدي أكاذيب، ومديحًا مبالغًا فيه، وكلامًا يسيل كالعسل من قفير نحل امتلأ حتّى التخمة... لكنّني لن أفعل ذلك اليوم. فلا هو ولا أنا أردنا الخداع. كان سيدي يتوقّع منّي أن أنظر إليه كما ينظر المرء إلى صديق يحتضر بدون حاجة إلى الكذب. كان قلبي يخفق بشدّة لأنّني سمحت لنفسي بالقيام بأمر لا يمكن تصوّره، أستحقّ من أجله مئة جلدة. بأمر ما كان أحد ليجيزه لنفسه قطّ. أخذت يد مولاي بين يديّ وشددتُ عليها بقوّة. كانت يده هزيلة ومتجعّدة، ولم يسحبها من بين يديّ. بقينا صامتين لبرهة من الوقت. ثمّ ناولني عصاه، وقال لي:

– خذها.

– إنّها عصاك المفضّلة يا سيدي. أحبّ أن أراك تلعب بها.

– أريد منك أن تحتفظ بها.

أخذتها، وداعبت شعر الأسد الذي يزأر، المحفور في قبضتها.

– إنّها رائعة يا سيدي.

– كانت لأبي، قال سيدي.

– يجب أن تؤول إلى وليّ العهد، لا إلى خادم تافه.

– لست خادمًا تافهًا يا محمّد. أنت صديقي. أعرفك على الأقّل بالقدر الذي تعرفني. وأعرف أنّها تعجبك! اعتنِ بها.

ثمّ رفع عينيه نحو أزهار الجكراندة.

– لن أعود لرؤية الأزهار بعد اليوم، أليس كذلك؟

حدّقتُ في جفنيه الشبيهين بستارتين انسدلتا فوق عينيه المريضتين، وأجبته:

– لا، لن تراها بعد اليوم يا مولاي.